بَعثُ المُومِيَاء

روايـة

حسيبة طاهر جغيم

٢٠١٧

الناشر

النخبة للطباعة والنشر والتوزيع

www.darelnokhba.com

رئيس مجلس الإدارة

أسامة إبراهيم

المدير التنفيذي

سماح الجمال

المدير الفني

أحمد جابر

تصميم الغلاف

مصطفى الدناصورى

التصميم الداخلى

وليد محمد

دار النخبـة

للطباعة والنشر والتوزيع

٣٣ شارع السنترال - المجاورة الأولى
- الحي الأول- مدينة الشيخ زايد -
الجيزة - مصر

تليفون: ٣٨٥١١٩٦٩ - ٠٠٢٠٢
٠١٢٨٨٦٨٨٨٧٥ - ٠٠٢
E-mail: alnokhoba@gmail.com

إهـــــداء

إلى أولئك الذين لم يسبق أن أهداهم أحد كتابًا...

إلى أولئك الذين وُجِدوا على هذا الكوكب فقط ليَتعذبوا،

ويَتألّموا، ويَجوعوا ويَعطشوا، ويَشقوا، ويُهمشوا، ويُستعبدوا...

إلى الفقراء والمعوّقين والأيتام... إلى الأرامل والمطلقات والعوانس...

إلى من يعانون ألمًا نفسيًا أو اضطرابًا عقليًا في عالم لا يرحم.

إليكم، وإليكم وحدكم دون سواكم أهدي كتابي، بغض النظر

عن إيمانكم، إلحادكم، دينكم، عرقكم أو أصلِكم...

تمنيت أن أهديكم شيئًا يفيدكم،

لكن للأسف ما أكثركم، وما أقلّ حيلتي ...

خَرَجَت «فردوس»، متوجسة تشعر بالرهبة وهي تغادر مطار مونتريال... كان الجو شديد البرودة والبياض يلف المدينة...

ظلت تبحث عن سيارة عَمِهَا «الدودتش الفضية»– كما وصفها لها– لكنها وجدت السيارات كلها متشابهة، إلى رأته يُلوِح لها قاطعًا الطريق صوبها، فأسرعت إليه مهرولة، وفجأة زلّت قدماها وكادت تسقط أرضًا...

ما هذا الشؤم؟!

وقوع وزَلّة من أول خطوة تخطوها على أرض كريستوفر/ مُكتشِف العالم الجديد!

صافحها عمها بينما كانت تتوقع أن يأخدها بالأحضان، لكن يبدو أن عواطف الشرق الملتهبة تتجمّد تحت طبقات الجليد الكندي.

صعدت السيارة الضخمة بستة مقاعد خلفية، كل مقعد مجهز بمسندي يد ومكان لوضع المشروبات

والطعام، فالكنديون يحبون الأكل داخل السيارات لأنهم يسافرون لساعات طويلة...

قال لها عمها ذلك... ثم أخذ يسألها أسئلة كلاسيكية عن أحوال العائلة وكيف كانت رحلتها، ثم استطرد معتذرا عن عدم حضور زوجته لاستقبالها، قائلا:

– الطفلان ينامان مبكرًا، و «مادلين» لا تحب التشويش على روتين حياتها اليومي.

– لا بأس قالت... ثم حكت له عن الكلب الذي التصق بها داخل المطار وهي تحاول الابتعاد عنه، إلى أن جاءت الشرطية وقالت لها:

– أنت تحملين فواكه؟... ووضعت الشرطية حبة حلوى في فم الكلب مكافأة له ... بينما ظنت فردوس أن تلك الشرطية تقرأ الغيب، إذ قبل أن تفتشها أخبرتها أنها تحمل فواكه، وأضطرت لدفع مئتي دولار كغرامة ومصادرة التين المجفف والبلح الذي أحضرته هدية لعمها الذي انفجر عمها ضاحكًا وقال:

– الكلاب البوليسية المدرّبة تتمتع بحاسة شم متطورة، مهمتها البحث عن الطعام داخل الأمتعة خصوصا الفواكه والأجبان ... لذلك تمنع السلطات هنا دخول الفواكه خوفا من انتقال عدوى طفيلية أو أمراض تصيب نباتاتها وأشجارها ...

قطعا شوارع المدينة، فظلت فردوس تتفرج على ناطحات السحاب والأضواء التي تزيّن الشوارع والبيوت بمناسبة أعياد الكريماس، فأعجبها منظر «السّان ورن» المتجمّد والماء المنهمر من أسقف المباني والعمارات الذي تجمد، كأن ساحرة حولته إلى قطع زجاج لامعة بلمسة عصا. وأغنية جميلة وهادئة تنبعث من أعمدة الإضاءة بالشارع تقول:

Vive le vent
Sur le long chemin
Tout blanc de neige blanche
Un vieux monsieur s'avance
Avec sa canne dans la main

Et tout là-haut le vent
Qui siffle dans les branches
Lui souffle la romance
Qu'il chantait petit enfant
Refrain
Vive le vent، vive le vent،
Vive le vent d'hiver
Qui s'en va sifflant، soufflant
Dans les grands sapins verts.
Vive le temps، vive le temps،
Vive le temps d'hiver
Boules de neige et jour de l'an
Et bonne année grand-mère.

على الطريق الطويل

كل شيء أبيض من بياض الثلج

رجل عجوز يتقدم

بعصى في يده

وفي الأعلى الريح تصفر على الأغصان

تغني الأغنية الرومانسية التي يرددها الأطفال

تحيا الرياح... تحيا الرياح

تحيا رياح الشتاء

التي تمضي تصفر وتنفخ

على أشجار الصنوبرالخضراء الكبيرة

كرات الثلج ... رأس السنة

عام سعيد جدتي ...

فوجئت فردوس بأن بيت عمها رغم جماله وأناقته كان أصغر مما ظنته، صالون بتلفاز بحجم الجدار... أريكتان من الجلد الإيطالي الرفيع... طاولة زجاجية عليها تحفة

صينة تبدو غالية... قاعة طعام... مطبخ على آخر طراز... فقط غرفتان.

– أين سأنام ياترى؟ قالت فردوس...

– العم : مادلين ... مادلين

لم تجبه فاحمر وجهه وقال كمن يعتذر:

– يبدو أنها نامت، ربما أصابها صداع، فكثيرًا ما تنتابها نوبات صداع... أدخلي يا عزيزتي استحمي بعدها نتعشى .

أبهرها الحمام بجماله ونظافته لطرازه العصري والتجهيزات الفخمة من صابون وصنابير بمجرد أن وضعت يدها تحتها نزل الماء أو الصابون، ثم مجفف اليدين.

قبل سنوات قليلة فقط أصبحت تستعمل مجفف الشعر، فقالت في نفسها ساخرة: هم يجففون اليدين!

وأحست برااااحة وأمااااان، فاستمرت في الكلام مع نفسها قائلة:

– عندما تكون غريبا وضيفا ببيت غير بيتك، فإن المكان الوحيد الذي تشعر فيه بالراحة والحرية هو الحمام!

جلست على الطاولة تتأمل أصنافا لأول مرة ستتذوقها قدمها لها عمها، شربة الفطروالقرع، سلطة تفاح وأفوكا وجمبري، سلمون مشوي بصلصة شراب القيقب، أجبان ومقرمشات، كعكة الجبن... لكنها لم تتمكن من أكل شيء لشعورها بالإرهاق ولأكلها وجبة بالطائرة، وإحراجها بسبب عدم استقبال زوجة عمها لها.

فتح عمها غرفة الطفلين وأخبر فردوس أنها ستنام في سرير «داني» الذي سينام بدوره بجانب أخيه، لكنه تفاجأ بأن الطفل في سريره . وهنا فقط خرجت مادلين، ملامحها أوروبية وبشرتها برونزية لكنها لبنانية الأصل، وقالت لفردوس:

– أهلين... ستنامين في الصالون ياعزيزتي، آسفة ولكن الولد رفض التخلي عن سريره خصوصًا أنك ستقيمين هنا وليس ليوم أو يومين، ثن عادت لغرفتها تتثاءب ...

تمنت فردوس لو ماتت قبل أن تتعرض لمثل هذا الازدراء والاحتقار من زوجة عمها التي نظرت إليها كأنها مخلوق سخيف غريب الأطوار أتى من كوكب آخر أو زمن آخر ...

في اليوم التالي، أخبرت عمها أنها تريد الإقامة في شقة مشتركة مخصصة لطلبة، فرحب بالفكرة دون أدنى ممانعة أو مجاملة، فالعرب عادة يراوغون في أشياء كثيرة أهمها التظاهر بترحيبهم بالضيف على الرغم من تضايقهم منه، ومراوغتهم في الحديث عن الجنس إذ يستعملون الرمزية بدل الحديث الصريح، والمراوغة في الصحة والمرض، فيوهمونك أنك بخير حتى لو تيقنوا أنك تحتضر ظنا منهم ربما أن نطق الحقيقة يعجل بوقوعها...

أما عمها فتغيرت طباعه، خصوصا أن مادلين هي الآمر الناهي له، فيتصرف حسب ما يرضيها ولا يقول إلا ما يروقها، ولكثرة طاعته لها يتصرف على النحو نفسه في حضورها وغيابها ، إذ يتهيأ له أنها تسمعه...

وهكذا خانت فردوس عهد والدها حمدان الذي وافق على سفرها كمكافئة لتفوقها الدراسي مشترطًا عليها الإقامة عند عمها، وإلاّ كيف كان سيوافق وهو الرّجل الشهم الأصيل على أن تقيم ابنته وحيدة بلا محرم وفي بلد غريب...

والحقيقة أن حمدان كان أكثر من ابنته فردوس تطلعا لسفرها وإكمال دراستها، إذ لم يرزق بذكر وكانت هي أكبر البنات، فتمنى أن تكون ناجحة ومتفوقة مثل عمها...

***

*

جلست تلملم سعادتها المكسورة على عتبة الزمن فانجرحت أناملها وما لملمت شيئا.. تناثرت أحلامها قطرات عطر فطارت.. كانت ترشف قهوة حالك سوادها كالليل المخيم على المدينة.. ساعتها المصلوبة على الجدار بذنب البشرية، تئن مصدرة صوتا يوحي بالوحشة والرهبة والسكون والملل والعدم والفراغ.. كم انتظرت ذلك الزائر الذي ذهب ولم يعد.. ذلك الذي رسم لها لوحة يتيمة ذات غرام ولم يلونها، وظلت تعيش على أمل لقائه ذات قدر.. الغرفة باردة، والجو ماطر..

جاءت هذه المدينة بأحلام كبيرة، وها هي ستغادر بأحزان بحجم عمْر، فهل ما يزال في عمرها متسع لبعض الفرح؟!

تهاطلت عليها اللكمات والصفعات والكوارث.. تلاطمت أمواجها وكبرت أحزانها وأثقلت الهموم كاهلها..أهي تعويذة الساحرة في عيد (الهالوين) قد سخطتها؟ أم لعنة الفراعنة لاحقتها إلى هنا؟ أم هي دعوة شر من الدعوات التي كانت تجود بها قريحة

جدتها «ستيتة».. تلك العجوز الدجالة الذميمة بأسنان طويلة كأنها كائن مُسخ عن قرد أو فأر والتي كانت ترعب كل أطفال القرية ما عداها، فقد كانت تنام في حضنها، وتنتشي بدفئها وحنانها.. كانت جدتها وكأنها بشخصيتين مختلفتين؛ في النهار عجوز شمطاء دجالة تدّعي التنجيم للارتزاق من جيوب الأغبياء الذين كانوا يظنون أنهم إن لم يرضوها ستسخطهم وتسلط عليهم لعنة غضبها وأصدقائها من الجان فيحدث لهم مكروه، وفي الليل جدة حنون تأخذ حفيدتها في حضنها و تنام معوضة بذلك الحنان الذي افتقدته من يوم موت زوجها وهي لم تتجاوز آنذاك الثلاثين من العمر..

...الله يرحمك يا جدتي، ويرحم أيامك..!

هي التي جاءت من القاهرة حالمة بشهادة كبيرة ووظيفة.. وربما بإقامة دائمة بكندا، لكن جرت الرياح عكس شراعها، وكادت تغرق السفينة وتشردت نوارسها، ولم تجد لها برًّا تقف عليه بعدما كُسر شراعها، وتطايرت شظاياه لتستقر في قعر المحيط البارد المظلم.. تُسبِّح عسى من يسمعها ويعيدها لليابسة ثانية..

اكـترت شـقة صغيـرة شـراكة مـع فتـاة تونسـية بحـي (الكـوت دي نـاج) القريـب مـن جامعـة مونتريـال.. ظلـت تجاهـد الحيـاة مـن أجـل تلـك الشـهادة.. عمـل بالليـل، و دراسـة بالنهـار.. عملـت في كل شـيء: البيـوت و المطاعـم ومرافقـة المرضـى و حتـى حارسـة كلاب وقطـط.. إلـى أن تعرفـت إليـه عـن طريـق صديقتهـا «سـهير».. كان شـابا تونسـيا حاصـلا علـى الجنسـية الكنديـة، ومالـكا لمطعـم «بيتـزا».. ميسـور الحـال.. أحبتـه وأحبهـا (أو هكـذا كانـت تظـن!)، تعارفـا.. تعاشـقا.. بـدأت تتغيـب عـن محاضراتهـا.. حتـى عـن امتحاناتهـا.. بـاءت سـنتها الدراسـية بالفشـل، لكنـه وعدهـا بالـزواج، وكان يوسـوس لهـا كالشـيطان بـأن تـترك الدراسـة و تعمـل معـه بالبيزيريـا، ويجمعـا مـالا وفيـرا لشـراء منـزل بطابقيـن يقيمـان في الطابـق العلـوي منـه، والطابـق السـفلي تفتحـه حضانـة صغيـرة بعـد أن تحصـل علـى شـهادة (الخمـس وأربعـون سـاعة في الطفولـة الصغيـرة)..

اشـتعلت الأحـلام في رأسـها.. اتصلـت تخـبر عائلتهـا بأنهـا سـتزوج.. لطمـت أمهـا و بكـى أبوهـا، لكنهـا صممـت ومـا شـاءت فعلـت.

تزوجته بفاتحة تلاها إمام المسجد بلا عقد ولا سواه، انتقلت للعيش معه.. فتحت الحضانة، كانت تعمل ليل نهار وحتى يوميّ السبت والأحد.. جمعا ثروة هائلة من البيزيريا والحضانة.. كل شيء كان باسمه بحجة أنها لا تملك بعد وثائق إقامة رسمية.

*

كان يعد حقائبه للسفر وهي تبكي:

-لِمَ لا تأخذني معك؟

-حبيبتي هل جننت؟ لو خرجت من كندا لن يسمحوا لك بالدخول ثانية..! ما كل هذه الدموع؟ أذاهب أنا إلى الحرب؟ إنها مجرد أيام وأعود!

تهاطل المطر الأسود من عينيها ولم يتوقف.. لم تصلها منه أخبار؛ لا تلفون ولا «سكايب» ولا «فايس»، حتى فوجئت ذات صباح بالسمسار المكلف ببيع البيت يطالبها بالإخلاء..!

عرفت أن البيزيريا قد بيعت، و أنه قد أخذ كل الرصيد من حسابهما المشترك.. ماذا ستفعل؟ وإلى أين ستذهب؟ لا حقوق لها.. لا ملجأ.. لا مأوى.. لا شيء إلا الشارع والضياع !

جلست على حافة (السّان لورون) تندب حظها وعمرها.. نظرت مليا إلى النهر الراكد، و ألقت بنفسها فيه علَّ حضنه يكون أكثر دفءً، وأكثر رحابة من حضن الحياة..

فتحت عينيها فإذا بها محاطة بالأزرق[1]، أكيد أنها ليست في جهنم، لكن هل هي في الجنة ؟ هل هؤلاء ملائكة؟ هل تتكلم الملائكة لغة البشر؟ و هل هي مزدوجة اللغة (فرنسي/ إنجليزي)؟ ثم فهمت أنهم أنقذوا حياتها وأنها بخير لكن عليها الإقامة في مصح للأمراض العقلية حتى تعقل، لأن الانتحار مرض عقلي في الصحة الكندية .

-لست مجنونة.. لست مجنونة..! اتركوني أخرج من هذا المكان اللعين..!

قال لها الطبيب بنبرة صارمة :

-أجل لست مجنونة لأن الجنون كلمة لا وجود لها في قاموس المصطلحات العلمية، ولكنك مختلة عقليا، وفاقدة للأهلية، وفاقدة لقدرة السيطرة على جهازك العصبي، ولست أمينة على حياتك.. وقد تمثلين خطرا على غيرك أيضا..

قالت الممرضة بصوت فيه شيء من التعاطف:

-إذا كنت يا عزيزتي تريدين الخروج من هنا بسلام فعليك اتباع النصائح، وحاولي أن تكوني

(1) موظفو الصحة في كندا مآزرهم زرقاء.

متزنـة، وهادئـة حتـى تسـتقر حالتـك العقليـة ..

إنهـم يقولـون حالـة عقليـة مـرة أخـرى..! هـل أنقذوهـا مـن المـوت ليتهموهـا بالجنـون..؟ كان المـوت أرحـم لهـا إذن!

قضـت في المصـح ستة أشـهر عجـاف مـن الاكتئـاب والقلـق والملـل والوحـدة.. لـم تكـن تـدري أن الاكتئاب معانـاة جسـدية أيضـا، كمـا هـي عقليـة ونفسـية.. صـداع مسـتمر.. ألـم أسـنان.. غثيـان.. قـيء.. تنمـل في أطرافهـا.. آلام في الصـدر والقلـب.. ضيـق في النفـس.. اختنـاق.. نوبـات بـكاء.. أكل بـلا شـهية.. نـوم بمنـوم.. كوابيـس بشـعة.. عقـدة ذنـب مـن محاولـة الانتحـار، خـوف مـن المجهـول.. خـوف حتـى مـن أعـراض الخـوف.. القلـق مـن القلـق نفسـه.. إحسـاس بالحـزن الدائـم.. شـعور بالوحـدة.. أفـكار غريبـة.. عـدم قـدرة علـى التركيـز.. فقـدان الشـهية لـكل شـيء.. الخـوف مـن المـوت المفاجـئ مـع عـدم الرغبـة في الحيـاة.. آلام في الـرأس.. طنيـن في الأذنيـن.. رؤيـا مضببـة.. آلام في المفاصـل.. آلام في البطـن.. إسـهال.. معانـاة وصلـت بهـا لحـد القلـق الوجـودي اللامتناهـي..

عندمـا تفقـد القـدرة علـى كل شـيء، والرغبـة في

أي شـيء، وتصبـح راغبـا عـن أي شـيء لأنـك فقـدت الثقـة بـكل النـاس المقربيـن قبـل الأبعديـن.. لأنـك تتوجـس خطـرا مـا، أو فاجعـة غيـر منتظـرة.. عندمـا يصبـح البقـاء لا يعنيـك.. بـل لا يغريـك، والمـوت يرعبـك ولا يرضيـك، فأنـت ترفـض المـوت وترفـض الحياة.. بـل تتمنى لـو أنـك لـم توجـد أصـلا.. لكنـك لا تحـب العـدم، ولا تحـب المـوت.. لأن المـوت عـذاب أو عـدم، وأنـت لا تحـب الحالتيـن.. مـا يكـون الحـل في حالتـك؟ ولـمَ تسـأل؟ وأنـت أصـلا عاجـز عـن الاختيـار بعـدم قدرتـك علـى أخـذ القـرار، وعـدم قدرتـك علـى تنفيـذه، فليس لـك إلاّ الانتظـار، وحتـى هـذه الهـواجـس والتسـاؤلات التـي تجتاحـك رغمـا عنـك، فأنـت مذنـب بسـببها.. لكـن؛ كيـف تكـون مذنبـا وأنـت لـم تختـار؟ كيـف تكـون مذنبـا وأنـت ضحيـة هـذه الأفـكار التـي تخـترق فكـرك وتتربـع في عقلـك وتعبـث بقناعاتـك ومعتقداتـك و تجعلـك تحتـار..؟!

*

استغلت وجودها في المصح لتعيش اكتئابها على أكمل وجه وبإتقان لأعراضه، دون محاولة إخفاء أو كتم أوكبت أي عارض من الأعراض.. مصرح الجنون واللاَّعقل، فلتتمسرح! وساعدها الناشط الاجتماعي لتمديد إقامتها والحصول على رخصة عمل..

-أرأيت عندما تحكمت في أعصابك كيف تمكنت من السيطرة على دماغك، وزالت جل الأعراض التي كنت تعانين منها؟ هيا أبشري! فقد مضى الطبيب على عطلتك[1]، غدا عطلتك، وستغادرين، وسأشتاق لك صديقتي (فاغدوز)

لم تشعر إلا وهي ترتمي في حضن الممرضة الشقراء باكية:

-شكرا.. شكرا لك.. أنت ملاك.. ملاك..

-هدئي من روعك عزيزتي، فالانفعال لا يليق بحالتك!

(1) في كندا يقولون عطلة عن الخروج من المستشفى

خرجت من المصح.. عادت للحياة.. للشقاء.. للبؤس، للأقنعة والمشاركة في الكرنفال البشري الدائم. عادت للدراسة، وعملت كموزعة للجرائد المجانية بمحطة الميترو بأجر زهيد، حيث كان يمد لها يده كل صباح ليأخذ الجريدة، ويبتسم لها قائلا:

-أنت جميلة .!

في إحدى الصباحات قال لها:

-أنا رسّام.. وكم أتمنى أن أرسمك.. ألديك مانع أيتها العربية الجميلة؟؟

قالت بلغة فرنسية مكسرة :

-كيف عرفت أنني عربية ؟!

-وهل هذه العيون وهذا السمار تمتلكه غير العربيات؟؟

استطردت قائلة:

-ثم أنا لا أجيد الفرنسية.. أنا أتكلم إنجليزي وعربي

قال :

-سأكلمك بأية لغة شئتِ، وسأتعلم العربية لأجلك يا كليوباترا،

ترددت كثيرا.. هل تخوض المغامرة وتذهب؟ فهو يعجبها ويثيرها.. وماذا لو كان شاذا، أو مجرما أو..؟ لا.. لا لن تفعل..! بلى.. بلى ستفعل..!

ذهبت مقررة أن تضع قلبها في حقيبة يدها وتعطيه مخدرا، وتعطي عقلها منشطا قويا حتى يظل واعيا وحارسا لا يغفو، فعادت بعقل يحتضر وقلب يضيق بما يحمل.. لقد سحرها.. بهرها.. خدّرها.. أسكرها.. لقد أدمنته والسلام!

أصبح سلواها ومأواها ومنتهى مناها، تكررت المواعيد وازادت التناهيد، ولكن ما كان يستغربه كيف برغم كل ما تعانيه من الجوى والحب لا تسمح له بلمسها أو تقبيلها.. لمَ تكبت مشاعرها ورغباتها وتولي ظهرها لأحاسيسها؟ وما المهم؛ الحب الصادق والوفاء، أم تلك الوثيقة؟! لكنه بقدر عدم قدرته على فهم واستيعاب معتقداتها بقدر ما كان يحترم تعففها و صرامتها.. جميلة هي كالتمر.. كالعسل.. صارمة متحفزة للدفاع عن خصوصياتها كاللبؤة.. تحترم أباها وهو لا يراها، وتخاف ربها وهي لا تراه.. ما أروعها من أميرة شرقية ساحرة...!

أحس أنه ما عاد قادرا أن يحيا بدونها.. أنها قد

غـدت هـواءه ومـاءه وكل حياتـه.. فقـرر أن يمضـي ويفاجئهـا بالقـرار الحاسـم.

-فلْنتزوج حالا!

كان يظـن أنهـا سـتطير فرحـا، وسـترتمي في حضنـه وتلتهمـه قبـلا، وقـد تنـزع ملابسـها وتقـدم نفسـها لـه هدية طـال انتظارهـا.. فاكهة آن قطفهـا.. لكنهـا طأطأت رأسـها، وقالـت بصـوت فيـه أمـل مغلـف بيأس وموشـح بشـجن:

-لا يمكنني أن أتزوجك.. إلا إذا..

-إلا إذا ماذا ؟؟

-إلا إذا دخلت في الإسلام ...

-مـاذا ؟ أدخـل في الإسـلام؟؟ إذا كنـت قـد خرجـت مـن ديـن أجـدادي كيـف تريدينني أن أدخـل في دينك؟! سـخيف.. ثـم أنـا لا أفهـم لمـاذا ؟ لـن أمنعـك عـن ممارسـة شـعائرك، سـآكل اللحـم الحـلال مثلـك، سـأحتفل بأعيـادك.. مـاذا تريديـن أكثـر مـن ذلـك؟!

-لأن ديني يحرم عليّ الزواج من غير المسلم.

-دين عنصري.. ترفضين الزواج مني حتى لو عرفت من أنا؟ أنا ابن المليونير الكبير «ماتيس ثخومبلاي»، أبي يملك جزرا وبيوتا ومصانعا ونحن أربعة إخوة سنقتسم كل إرثه بعد موته، ولا أظنه سيعيش طويلا لأنه مصاب بسرطان اللسان والحنجرة..

ورمى هويته بوجهها.....

-غريب أنت! أطال الله عمر أبيك.. ثم أنا لن أبيع ديني ومعتقداتي حتى لو كنت ابن (بيل غيتس) نفسه.

-وأنا قد مللت منكِ، ومن هذه المسرحية المتناقضة المشاهد/ الداكنة الألوان؛ ممارسة الحب ممنوعة بلا زواج، الزواج ممنوع بلا دين، الرسم لا يتجاوز الرقبة، لا سهر.. لا رقص.. لا.. تبحثين عن التعاسة فلْيكن لك ما تريدين، سأرحل.. لن تري وجهي بعد اليوم! ولا تحاولي البحث عني، فما تعودت استرجاع أشياء رميتها في المزبلة مهما كانت ثمينة .

غادر هو، و ظلت هي وحيدة ساهمة كالصنم، غرفتها باردة رغم كون (التيرموستا) على الحائط

تشير إلى اثنين وعشرين درجة، فالإحساس بالعوامل الخارجية يأتي من داخلنا، وتفاعلنا معها يكون خاضعا لمعنوياتنا وحالتنا النفسية، فقد نشعر بالدفء في عز البرد، وقد نشعر بالبرد والرجفة والصقيع في عز الحر، و قد نلتهم الطعام بنهم دون شهية ودون أن نشبع، و قد نحس بالشبع لمجرد رؤية عزيز أو حبيب طال غيابه عنا.. وقد لا ننام ولا نشعر بالتعب، وقد ننام وننهض لنعود للنوم ثانية، و قد.. وقد...

حزينة هي حزن هذه المدينة الغريبة عنها، تبعثرت أشياؤها في دروب زمانها، وحقائبها كسرت على بابها.. يسحقها الزمن الثقيل هنا الموحش وحشة وحدتها.. وجهها الشاحب اللون يصيبها بالاكتئاب، وغياب ضوء الشمس يصيبها بهشاشة الإحساس، وبرودها يجمد مشاعرها كتجمد الماء في البحيرات.. كل شيء هنا مجمد إلى حين.. إلى حين ماذا؟ لا تدري!

هنا الهواء مجمد.. الأطعمة مجمدة: الخضر والفواكه، الخبز والحلويات، حتى الأسماك مجمدة.. الشعور مجمد الحب و الفرح وحتى الحزن مجمد! الدمع في الأحداق مجمد.. فراغ لا نهاية له.. سكوت

شديد الذبذبات.. لا طير.. لا فراش.. لا بشر!

لو تسألها عن شعورها الآن ستقول مُنعدم.. ليست حزينة ولا سعيدة.. ليست غاضبة ولا راضية.. إحساسها مُنعدم وغير طاف.. أصبحت تحس أنه لا فرق بينها وبين تلك السمكة داخل الحوض الزجاجي؛ ترى كل شيء دون أن تلمس.. يبهرها ما هو خارج أسوارها الزجاجية، لكنها لو غادرته ستختنق تموت.. فتكتفي بالأكل والنوم.. وإن ملت تدور داخل الحوض، وتعود دوما لنفس نقطة انطلاقها..

كثيرا ما تضعك الحياة في مواقف اختيار صعبة، فتضطر للتضحية بشيء في سبيل الآخر تماما كحكاية «مارينا» عروس البحر التي أرادت أن تحصل على رجلين، ففقدت صوتها، وكم كان صعبا اختيارها: الدين من ورائها، والحب والحياة من أمامها..!

أحست بغربة عن كل شيء، حتى عن ذاتها. أحست بالوحدة والسكون واللاَّشيء؛ لا صوت.. لا وجود غير طقطقة حبات البَرَد المصطدمة بزجاج النافذة، فهل كان الأمر صدفة أم تعمد البرد التحرش بها لأنه يعلم أنها غريبة في هذه المدينة، ووحيدة ..

*

كانت الريح تصفر كأنها تنذر بالفناء، واختلطت أصواتها بأصوات أجراس الكنيسة معلنة أن روحا قد فارقت القفص الذي حبست فيه إلى آفاق أخرى وأبعاد كونية و زمانية أخرى...

مرّرت أصابعها على القيثارة العتيقة المشروخة المصنوعة من عظام الأموات.. تعزف لحن الفراق الحزين.. سنفونية آخر حب يبحر للبعيد إلى اللاَّعودة.. كانت الضربة عنيفة قطعت كل الأوتار، وقطعت إبهامها، فانفجرت شرايينها.. أصبحت الأشياء باهتة يلفها الضباب، هلامية تسبح في عالم من فوضى هندسة الفضاء الافتراضية حيث اللاَّلون واللاَّشكل.. حيث يسكن المكان الزمان، ويأخذ الزمان ملامح المكان.. أصبحت مخلوقا بلا ملامح تعيش عمى الألوان، وفوضى الحواس، واختلاط الذبذبات الصوتية، فلم تعد تفرق بين ضحك ونحيب، أو نواح.. كانت تحاول عزف الحياة من الفناء، وتأبين الفناء بالحياة، ورسم جدارية بألوان الموت.. تعيش موتها على صفحات الكتب القديمة

وترسم وجهها بين سطورها وفلسفتها.. أعدت تابوتها وجهزت نعشها واحتفت وحدها بالصيوان.. كانت الجثة والمعزِّي والمعزَّى.. كانت المنتحب والنحيب..

إحساسها قديم قد عاشته عند بداية الخلق.. عاشته في العمى وما قبل العمى بقليل.. ويشهد عليه إله الحب والطوطم. إحساس بطعم العلقم.. مذاق يرسخ في الذاكرة لن تنزعه شوكولاتة «الكيت-كات» التي كانت تلتهمها بلا شهية فقط لتغسل عن روحها ذلك الطعم الذي لا يمحى!

تمنت لو عادت طفلة من جديد بضفيرتين وفستان زهري ووشاح بشكل فراشة.. تجري في المروج والغيطان.. تجمع الأزهار البرية وتقضم قصب السكر تحت الشمس الساطعة فوق رأس أبو الهول.. فتاة الشمس هي، وحفيدة الفرعون.. تمنت لو غطست في النيل العظيم الخالد، واغتسلت كي تتطهر من الذنوب والخطايا والحب والذاكرة، فتخرج منه طفلة نحيلة الجسم داكنة اللون بقلب صاف ونقي.. لكن أين هي من النيل، وهي لا تملك حتى ثمن تذكرة العودة؟ فلا عودة..

هي ابنة الشمس، حفيدة الفرعون .. هي سليلة كليوباترا وشجرة الدر، فقد لقحت طاقة من بنوا الأهرام وقهروا الغزاة.. لن تهزم! ستقف.. ستواصل.. ستحيا وسط الشوك وتمشي فوق الزجاج المنثور، وتمخر عباب الصعاب، وتخوض حروب «الغوريلات» السوداء حتى تحصّل مرادها، وتستقر حياتها ذات سخاء من القدر، أو غفوة من ذلك المارد الملعون الذي يسلط عليها لعنة سحرية لا تزيلها الرّقى.. تشل كل خير آت و تمسخه حجارة من سجيل تتساقط في سيناء أحزانها، فتضرم النيران في أحشائها وروحها وتغيّر اتجاه مصيرها..!

لن تقع في شراك الاكتئاب مرة أخرى.. لن تدخل المصح وتعامل كمجنونة.. لن يحدث هذا.. لن يحدث هذا أبدا..

❋

كانت تتجول في شوارع مدينة مونتريال لا تلوي على شيء فقط لقتل الوقت .. دائما نبحث عن وسيلة لتمرير الوقت وقتله كأن هناك نقطة وصول ما إذا وصلناها ارتحنا.. إلى أين نريد الوصول يا ترى؟ إلى الموت؟ أكيد! فالموت هو الحقيقة الوحيدة في الوجود.. لماذا هي تتحرش بالموت؟ أتراها فكرة الانتحار عاودت مراودتها؟

انقطع حبل أفكارها عندما رأت دكانا صغيرا للتحف، كان شكل التحف وألوانها يصرخ بهويّتها.. إنها تحف عربية مصنوعة باليد.. جلبها الفضول إذ بها تلج الدكان..

-أهلا سيدتي كيف أخدمك ؟

ـ لا شكرا.. أثارتني هذه التحف.. هل هي عربية؟

-أجل مستوردة من سوريا وتركيّا.

-جميل، رائع..!

ظلت تتفرج منبهرة بجمال التحف الجلابيب والأوشحة العربية.

-أنا آسف سيدتي يجب أن أغلق.. اليوم جمعة و هو وقت الصلاة.

-الصلاة ؟! أنت مسلم ؟

-أجل أنا لبناني مسلم.. وأنت؟

-مصرية مسلمة أيضا

-الحمد لله.. يعني بتحكي عربي؟

-إيه طبعا

-يالله.. اتركينا من الإنجليزي، لقد مللنا الحرف الأجنبي.. خلينا نحكي عربي أحلى.. مو هيك؟؟

ابتسمت:

-هيك طبعا،

لم تدر منذ متى لم تبتسم.. لم تضحك رغم أن ضحكتها المقهقهة كانت تطيّر الحمام من عشه على سطح بيتهم هناك بعيدا.

-أنا عماد

ومد يده مصافحا

-أنا فردوس

أحست بدفء يده يسري في جسدها تيارا كهربائيا عكس عقارب الساعة، فيمر بكل جسدها من الرأس إلى أخمص القدمين حتى غدت فانوسا يخرج منه النور والدفء ودندنت في داخلها (والحنان خد مني وإدي ياللي محروم من الحنان) -الله يرحمك يا عندليب -لكنها سحبت يدها بلطف وخرجت مودعة إياه.. ناداها:

-فردوس

-نعم ؟

-خذي هذا الكرت تبعي.. اتصلي بي إن احتجت لأي شيء.. أي شيء.. أوكي؟

أومأت:

-إن شاء الله.. شكرا.

ظلت طول الليل تفكر فيه.. اللعنة على خافقي! ما به يتوتر ويوترني ؟ أهو موت قادم من جهة الشرق، أم طاعون سيفتك بي ويعيدني للقعر المظلم ثانية؟. هـهْ! متى طفوت على السطح بالله عليَّ؟! متى؟! كلما أخرجت رأسي ارتطمتُ بطامة كبرى،

وعـدت رغـم أنفـي إلـى أسـفل السـافلين.. إلـى قعـر المحيـط البـارد تتربـص بـي أسـماك القـرش وأذرع الأخطبـوط.. أنـا ربمـا لسـت طبيعيـة.. أنـا مازوشـية.. سـيكوباتية.. أبحـث عـن العـذاب.. أتحـرش بالألـم.. أغـازل الإحبـاط و لا أملّ.. لكـن ليـس ذنبـي أن أقـع في الحـب وأهـوي بـلا رادع ، أنـا ابنـة «الفالنتايـن».. شـاء القـدر أن يرمينـي للحيـاة ذات عيـد حـب، فأنـا سـمكة تتنفـس العشـق السـرمدي، و تمـوت بدونـه.. ألفـت روايـة كانـت فيهـا شـهرزاد، لكنهـا لا تعـرف شـيئا عـن شـهريار، وبـدل أن تحكـي لـه الحكايـة حكتهـا لنفسـها ونامـت، وعلـى فمهـا ابتسـامة بريئـة و علـى خدهـا دمعـة حزينـة.

*

كانت جالسة في مقهى (تي مورتن) تشرب شوكولاتة ساخنة، عندما رأته داخلا من الباب.. شل تفكيرها.. ارتعشت أوصالها.. هل سيعرفها؟ أكيد لا! إنها تتوهم.. ما بي أنا ؟ ماذا دهاني؟ كأنني عدت مراهقة ابنة السادسة عشرة أرتعد لرؤيته، وتحمرّ وجنتيَّ وأرتعش.. سخيف.. والأسخف أنّ كل هذا لأجل شخص لم أره إلا مرة واحدة ..! تُرى كم فتاة احتضن يدها ذاك اليوم ؟ أعتقد أنه سيتذكرني وأنا لا أحتل شيئا في وجدانه ووجوده..

يا للهول! إنه يبتسم لها ويتقدم نحوها.. الموت الزؤام آت من الباب الغربي للمقهى..! مد يده ليصافحها.. أحست كأن يدها لم تفارق هذا الكف من لحظة التحامها به قبل ثلاثة أيام.. تمنت لو ظلت حبيسة كفه إلى يوم تنادى باسم أمها عند استفاقتها من سباتها المقدر الذي لا مفر منه.. تمنت لو حُفرت خطا في يده.. لو جرت دما في أوردته.. لو نبتت شعرة يتيمة في صلعته.. لكنه سحب يده برشاقة، فتهاوت يدها كأن لا عصب يشدها، واستفاقت على

شـذى صوتـه كمـن يستفيق مـن سـكر علـى خـدر..

-آنسة فردوس كيفك؟ كويسة؟

-وحضرتك؟

-منيـح الحمـد لله.. أتسـمحين لـي بالجلـوس، أم تنتظريـن أحـدا؟؟

ردت بلهفـة كمـن ينفـي عـن نفسـه تهمـة خطيـرة.. كادت تقسـم بـالله، لكنهـا تمالكـت نفسـها واسـترجعت رزانتهـا و قالـت:

-لا! أنتظـر فقـط وقـت «الميـترو» و الجـو بـارد في الخـارج، فارتأيـت الدخـول لشـرب شـيء يدفئنـي.. آه آسـفة سـيد عمـاد يجـب أن أذهـب، بقـي خمـس دقائـق علـى موعـد الميـترو..

-وهل هناك من ضرر لو انتظرت غيره ؟

-أجـل! لا بـد أن أمضـي.. فدوامـي يبـدأ علـى السـاعة السادسـة .

-ما عملك؟؟

-نادلة

-أين؟؟

-بمطعم (La belle bleu - sur la rue: Jean Talon) لابال بلو شارع جون تالو.

-تعشين وحدك؟

-أجل، أنا طالبة بجامعة مونتريال نهارا وأعمل بوقت مقسم ليلا (temps partielle).

-تحياتي لإرادتكِ

-عذرا.. يجب أن أرحل..!

هرولت متوترة الخطى كأنها نسيت خبرة المشي.

لم تفهم سبب ذلك التصرف الطفولي منها.. لماذا تهربت منه في آن كانت تتوق بشوق لمحادثته؟ ما هذا التناقض المقطب بين الفردوستين؟ أم تراها تخاف الإصابة بفيروس فقدان المناعة التعففية فلا تصمد أمام هجماته الغزلية؟ وما أدراها أنه كان سيغازلها؟ لقد تمادت حقا في استباحة احتلاله بشساعة مساحة حلمها، ها هي تسلط سوط التأنيب على ذاتها، فغدت القاضي والمتهم البريء الذي اقترف جريمة في ظروف خارجة عن نطاق إرادته..

فالحب قدر مقدر ولو خضع للتخطيط لن يكون حبا.. ـ أن تلوم أحدهم على الوقوع في الحب كأن تلوم المجنون عن جنونه، أو الميت على موته ـ

❋

-أنت اليوم شاردة و لم تعجبيني يا فردوس.. ما بك ؟

-لا شيء سيدي.. لا شيء! أنا فقط متعبة قليلا

- لكن الزبائن لا يحتاجون فقط طبقا مزينا، بل أيضا وجها بشوشا باسما، أمّا إذا كنت متعبة، فيمكنك الذهاب.

-لا.. لا أرجوك! سأكون بخير.

كيف تستأذن وهي بأمس الحاجة لكل قرش ستجنيه من هنا؟ حاولت أن ترسم بسمة أنيقة على شفتيها، لكن فكرها ووجدانها كانا مشغولان بذلك الغريب الذي استحوذ على عقلها وكيانها، وجرى مجرى الدم في شريانها .

ظلت جالسة وبين يديها ذلك الكرت الذي يحمل في مساحته الميكروسكوبية لهيب مشاعرها، ولهفتها الأنثوية الماجنة الخفية.. أجل؛ فكل أنثى تحمل في أعماقها طاقة وعنفوان تلك الماجنة المتمردة الملتهبة.. قد تطفأ نيرانها يوما على حلبة سرير موثّق، أو بين أحضان عابر جسد، وقد تظل

حبيسة أحلام اليقظة والإغفاء، وقد توثق إلى سرير موّثقٍ، وتعيش و تُضَاجَعُ و تلد و تموت دون أن تعي أن للأنثى غريزة كالذكر، ويكون للذكر وحده حق المبادرة والمغامرة والمباغتة، و حق التهديف وتحديد عدد الجولات والإضراب والاعتزال.

ظلت مترددة قلبها يوسوس لها بالاتصال به بأي حجة، وعقلها يضغط زر «الفيد باك» لتتذكر اندفاعها في مغامرة حب فاشل مع ذلك «الكيبيكي[1]» الذي بكل سخافة راحت تدعوه للإسلام كشرط لزواجها منه، فكان رد فعله أن خرج من حياتها صافقا الباب صفقة قطعت حبالها الصوتية وأصابتها بجلطة عشقية شلت تدفق الحس في روحها، وكادت ترسلها إلى الإنعاش النفسي.

أنهكها الصراع بين قلب مندفع، وعقل يكبح، فأخرجت تلك البطاقة وشكلت رقمه :

-آلو من معي ؟ ألو..ألو..

لقد لجمت، لم تتمكن من إخراج ولو حرف واحد! رمت الهاتف، و انهارت على أول كرسي صادفته، و تاهت في جولة عبر دروب الذاكرة

(1) نسبة لمقاطعة كيبيك بكندا

ودهاليزها.. صدمة على هذا الحائط.. بسمة في ذاك الركن.. آلام مصطفة على الرفوف.. وجوه أليفة وأخرى ما عادت تدري أهي حقيقة مرت بها، أم مجرد إبداعات من خيالها، وهَوامـا تِ طفولتها البعيدة الغابرة في اللاوعي.. لقطات حذفتها الرقابة فاستحال رؤيتها ثانية.. ارتعدت فرائسها عندما نبهها الهاتف إلى غياب وعييها :

-نعم

-هل اتصلتم بهذا الرقم؟؟

-آآآه.. لا.. أجل.. أجل.. أنا فردوس

أهلا عزيزتي، كيف حالك؟ سعيد بمكالمتك.

-بخير.. شكرا، وأنتم ؟

-من أنتم؟ أنا وحدي هههههه.. أنا لست بخير!

-لمَ؟؟

-مشتتتتاق.. وحيد.. متعب أنا.. ولدت ذات حرب وتيتمت ذات فجر، وأحتاج لصدر يعوضني حنان أمي، و نهد يدفئني، ويد تضمني وتهمس بالحب في أذني في هذه المدينة الغريبة عني.. فهل تقبلين تطفلي؟

-مـاذا تقـول سـيد عمـاد؟ آسـفة! مضطـرة لقطـع الخـط.

-لـو قطعتـه لـن أتصـل ثانيـة، كـوني كمـا أنـت ولا تراوغيني.. أنا لا أحـب اللـؤم الأنثـوي.. رجـل متشـوق للحـب أنـا، فقولـي أحبـك ولا تخجلـي! وارمـي في اللهـب كل العقـد، فليس عنـدي للحـب أجـل، وأمقـت «البروتوكـولات» الجوفـاء، والكلمـات المنتقـاة! كـوني عفويـة كالغجـر، وأدخلينـي مـن أي بـاب شـئت، و في أي وقـت شـئت.. مشـرعة هـي أبوابـي للحـب.. ولـك، فاسـكنيني للأبـد يـا جنيـة أحلامـي ولا تهجرينـي مهمـا بسـملوا ورتلـوا مـن الرُّقـى علـى مسـمعي.. تشـققت قبلـك تربتـي مـن كثـر الجفـاف، ومـن يـأس صحرائـي خرجـت.. مـا عرفت امرأة أحلى منكِ ولا أشـهى منك.. يـا زهـرة نبتـت في جـوف الصخـر وأينعـت في غـروب نهـاري.. بيـن جفونـك سـأمضي عمـري، ولـكِ مني كل الـولاء والوفـاء، ولـن أرى بعـد اليـوم غيـرك مـن النسـاء. إني وجـدت معـك الحـب المنشـود، ولـن أتركـه يمضـي لأن الحـب غيمـة إن مضـت لـن تعـود.. بـل سـتمطر خيرهـا وعطاءهـا في مـكان آخـر، وأنـا أريـدك بخيـرك وشـرك.. برحمتـك وحقـدك.. بـكل مـا فيـك ، فهيـا مـدي يـدك وخذينـي! ولـك وحـدك أن تحتكرينـي..

سأمضي على بياض عقد الحب، فكوني السم والترياق، والقرب والأشواق، واللهيب والإطفاء، والماء والهواء، والحرب والسلام.. كوني كما شئت لكن لن تكوني إلا ملكي يا ملاكي.. كوني أنثى.. فقط أنثى تشع على رجولتي نارا فتحيلها رمادا، وانزعي على باب معبدي أثواب الزهد والوقار، فحواء كانت ترتدي ورق الأشجار.. ارقصي في محرابي وغردي في وحدتي وأنيري بعينيك ظلمائي.. سلّطي سوط العشق على ذاتي.. كوني جلادي يا من كان على يديك ميلادي..

ظلت ساكتة كأنها تلقت صدمة كهربائية.. خشبت روحها والجسد.. لم تكن تتوقع أن يهجم عليها بطلقات غزلية وإعلانٍ حبيٍّ بهذه السرعة.. امتزجت مشاعرها بين فرح وخوف.. لم تجد إلا أن تقول له:

-آسفة.. سأقطع الخط.. عندي صداع.. يجب أن أنام تصبح على خير!

-هذه أعراض الحب التي لن تشفيها إلا جرعة قُبل.. تصبحين على حب يا من غدوت لجاهليتي هبل..

قطعت الخط الهاتفي معه، لكنها لم تقطع الخط الفكري والتخاطري، بل جلست وقالت لنفسها كلما أرادت قوله له: «عندما أفكر فيك أنسى وحدتي وهمي وأغفو عن الوجود.. يا رجلا يشع بالبرود و يقتلني بالحد والحدود، فأنت مشكاتي وشكوتي، وهمي ووهمي، وولعي ولوعتي.. خصوصية أشيائي وحافظة أشواقي أنت.. سكنني شيء لست أدري ما هو؟ حب؟ عشق؟ المهم أن هنا إحساس غريب وقوي وجارف واثقة من وجوده.. عاجزة عن وصفه وتفسيره.. دونك لا هواء.. ملل سأم اختناق! معك تحلو لحظاتي وأوقاتي، وتعتدل خفقاتي. أريدك هنا قربي ببسمتك وبصمتك، بلطفك، بعنفك وعنفوان رجولتك.. بريق عينيك نجم الهدى في الوعراء، كلامك موسيقاي وألحاني.. يا عندليبي وعذابي.. بُعدك برد وسقم.. قربك نار صقر.. فقط أتمنى ألاَّ تكون سرابا إذا وضحت الرؤى أجده خرابا، فتتفتت روحي و تكون ترابا..

قطعت حبل أفكارها رنة هاتف وحيدة .. آه رسالة..! هل تكون سهير؟ ارتعشت يدها عندما وجدت أنها منه : «غدا السبت لا شيء لديك أكيد، سأمر عليك الساعة الحادية عشر لنمضي بعض

الوقـت، ونتكلـم. أحتـاج فعـلا لمحادثتـك. أرسـلي لـي عنوانـك، و إن لـم تفعلـي لـن تريننـي بعـد اليـوم»...

قلبـت الهاتـف علـى وجهـه وغطّتـه بوسـادة كأنهـا تخـاف أن تنطـق الكلمـات وتجبرهـا علـى الموافقـة؛ مـاذا تفعـل؟ إنـه يهجـم عليهـا كالبحـر.. كحـد السيـف.. لا حلـول وسـط معـه.. إنـه لا يـترك لهـا حتـى فرصـة التظاهـر بالتمنـع، و التلـذذ بملاحقتـه لهـا كمـا تعـودت كفتـاة شـرقية. لـم تجـد إلا أن ترسـل لـه عنوانهـا، وتغطـي رأسـها كالنعامـة كأنـه هنـاك يراهـا وتنـام.

*

أي لـون يليـق بلقيـاك يـا سـيدي؟ فموعـدك سـيد المواعيـد يـا سيد الكلمـات.. يا غـازل الحب وصانـع الأمنيـات.. أي شـكل أو أي زهـر يحتفـي برجـل بيـن أوردتي يتهـادى؟ أأتزيـن؟ أأكتحـل؟ الـكل يفعـل هـذا، أريـد شـيئا فـوق العـادة يليـق برجـل اخترقنـي ومـا زال يفعـل بـلا هـوادة .. يحاصـرني خيالـه في الصحـو والإغفـاء.. في قهـوتي وأوراق كتابـاتي.. يأتينـي صوتـه في كل الأغـاني.. ريحـه تلاحقنـي.. تغشـاني.. تُغشـيني وتـكاد تغمينـي.. همسـة منـه تميتنـي وتحييـني وتـروي عطـش حنينـي.. لمسـاته تعتصـرني وتكتـم أنينـي وتنسـيني نوعـي.. أصلـي.. جنسـي.. دينـي.. أُصـاب بـدوار البحـر وفـوق اليابـس أمشـي، وأتنفـس مـا ذاب مـن الأوكسـيجين، وأغـدو سـمكة قـرش حكـم عليهـا بالغطـس والطفـو اللّامُسـتكين في بحـر حبـك الرهيـب، و غموضـك المهيـب.. يـا سـاكني ومسـكني..

هـا هـي ذا تسـير بخطـى متثاقلـة أرادتهـا متسـارعة، لكـن رجليهـا مـا عادتـا قادرتيـن علـى حملهـا مـن فـرط انفعالهـا وتوترهـا.. تـاه عقلهـا شـغفا وولعـا غيـر

آبهة بما سيحصل.. هامت في سماء الخيال، ونزلت ذلك الدرج مغمضة العينين حتى تعثرت وكادت تقع.. لا يهمها.. ستمضي في ذلك السرداب الطويل الذي لا تدري إن كان له مخرجا للنور، أم هو مغلق المنافذ.. ستتجرع الحب قطرات من العسل وبعض علقم.. هذا قدرها وقدر العاشقين وما بوسعها أن تفعل؟ عواطفها متأججة ممتزجة في غير تجانس، لا هو خوف ولا طمأنينة.. أمل يغشاه اليأس، ويأس يوشحه الأمل.. أمل في ماذا؟ في أن تكتب نهاية سعيدة للحكاية ؟ تذكرت ما قالته صديقتها سهير: «من حقنا أن نحلم لكن فقط يجب ألاَّ نتمادى في تصديق أحلامنا» .

جلس قبالتها.. خدمتها كثيرا تلك المزهرية الفاصلة بينهما في إخفاء توترها الذي ظنت أنها أخفته، لكنها بقدر ماكسته.. عرّته.. ها هي من تعودت خدمة الزبائن تجلس أميرة وهناك من يخدمها، والحب جارها، فهل هناك أجمل من هذه اللحظات؟! حتى لو كان ما تعيشه سرابا.. الحياة كلها سراب، فلْتكن ذكرى جميلة للسراب، لا ذكرى بشعة للواقع والخراب.. قال:

-أنـا هنـا لأحكـي عنـك و عنـي.. أنـا ابـن مالـك سلسـلة محـلات «سـجاد فـارس»، أقيـم بمونتريـال منـذ عشـرين سـنة.. منـذ أن هاجـرت عائلتـي مـن لبنـان وكان عمـري يومهـا اثنـا عشـر عامـا، تخرجـت مـن (كـولاج ميزونـوف) بشـهادة تجـارة و إدارة أعمـال، و هـا أنـا أديـر أعمـال والـدي وأتابـع دراسـتي بالجامعـة الليليـة آداب.. وأنـت ؟

-أنـا حيـاتي لا تختصـر في كلمـات، لا تسـرد.. بـل تُعـاش!

-كـم أتمنـى أن أراك في شـقتي وأتـذوق مـن عمـل يديـك ممـا تجـود بـه ذاكرتـك الشـرقية مـن وصفـات مبهـرة بنسـيم الشـرق والزعفـران، فهـل هـذا سـيحدث؟

*

دقت الجرس.. فتح لها بلهفة.. ودخلت برجفة.. شقة أنيقة غير مكتظة بالأثاث كبيوت أثرياء العرب.. الطاولة جاهزة بأصناف الأكل، فحكاية الطبخ مجرد حجة كانت: شاورمة، أرز، بيزا، أنواع أجبان، سلطات، و مزهرية صغيرة لزهور صناعية .

-أنا لا أحب الورود الصناعية.

-لكن الورود الطبيعية لا تناسب طاولة أكل، لأن أريجها سيمتزج برائحة الطعام وينتج إحساسا منفّرا، كما تسيطر رائحة عطرك الـ(مارك جاكوب) على حواسي الآن، فتغلق شهيتي للطعام، وتفتح فيَّ شواهي وشهوات أخرى..!

مد يديه واحتضن يدها، ثم قرّب شفتيه من شفتيها محاولا تقبيلها.. لكنها انتفضت، وقامت واقفة:

-معذرة يجب أن أرحل!

-و الأكل ؟؟

-فعلتك سدت شهيتي عن الأكل وسواه!

-لمَ؟! ... هل أجرمت؟ لمَ أنتِ هنا إذن؟

-أنا هنا لأنني.. لأنني مومس.. مومس..

واندفعت راكضة .

-فردوس.. فردوس..!

آه يا قلب كم اعتصرك الألم.. كم خفقت فوق طاقتك وبذلت جهدا أكبر من جهدك، وأتعبت بالوجد صدرا يحملك..! تتألم وتؤرق من حولك.. ما أسخفك! لِمَ الحزن؟ إنه زمن الأقوياء.. هذا الزمن ليس زمن الأغبياء الذين ينشدون حبا بلا ثمن.. زمن الأسود لا زمن العصافير الوديعة.. قصير ومختصر هو عمر الفراشات البديعة، وطويل جدا حزن الوجوه البريئة.. تستثار العيون لكل ما يبرق وتعمى عن كل جوهر إن غلف، إنه زمن الدفّ.. كرنفال الصخب.. فكيف ستجد لك مكانا وسط أناس هبطت درجة أرواحهم إلى سبعين درجة تحت مستوى الإنسانية..؟! كيف ستعيش بين من تسحق أقدامهم أزهارا في البرية..؟! غبي أنت يا خافقي أن تلوم من يحسدك ويكرهك دون سوابق معرفية..

إنـه زمـن الكراهيـة.. زمـن العدائيـة والغيـرة المتواريـة والأقنعـة الخاويـة.. مـت متسـمما بعنترياتـك الحليمية، أو عـش معـزولا في تلـك الزاويـة ولا ترهقنـي.. إني مللـت وساوسـك اللاَّمجديـة..

تذكـرت «محمـد»؛ ذلـك الشـاب الفلسـطيني صديقهـا علـى الفايـس الـذي يحبهـا حبـا جنونيـا ولا يطلـب شيئا مقابلا، ومـا يـزال يحترق عشـقا رغـم أنها لـم تتمكـن مـن مبادلتـه أي مشـاعر.. فمـا أجمـل الحـب الـذي يأتيـك مـن بعيـد: حـب بـلا رغبـة.. بـلا هـدف.. منـزه عـن كل غـرض.. حـب صـافٍ ونقـي لا تشـوبه شـوائب المـادة الفانيـة.. لاتنتابـه لحظـات حيوانيـة.. لا أمـل فيـه لشـيء غيـر حـب كبيـر بحجـم وطـن.. حـب لونـه كوجـه الأم المبتسـم.. تعانقـك مـن بعيـد روح بطيبـة الأنبيـاء وزهـد الأتقيـاء.. تحـترق لأجلـك، وترجـو سـعادتك.. لا يطيـب لهـا عيـش إلا ببسـمتك.. تعشـقك وتتمـادى في عشـقك رغـم أنهـا لـن تلقـاك، ولـن تلامـس هيكلـك.. تحـزن لحزنـك وتقلـق لقلقـك، تقهـر لغيابـك، ترتجـف رعبـا لفكـرة فراقـك رغـم كونكمـا مفترقـان.. تلقـاك رغـم أنهـا أبـدا لـن تلقـاك.. تـراك، وهـي أبـدا لـن تـراك.. تشـتاقك شـوقا أبديـا، وتكتفـي منـك بأحـرف متناثـرة وبضـع كلمـات.. حـب كهـذا

يسعدك حد الغرور، ويشقيك حد النفور، ويحزنك حد الاكتئاب، ويؤلمك حد الفرار، فتحس بالذنب بلا ذنب يذكر.. تختلط أحاسيسك عليك ويغيب الحكم عنك، وتعجز عن أي قرار حتى عن الحضور أو الغياب.. فما عدت تدري أمن الأخيار أنت، أم من الأشرار..؟!

عندما تحب إنسانا ما؛ ضع احتمال فراقه في الكفة الأخرى للميزان، فبقدر ما تبيح لنفسك حبه، بقدر ما تغامر بصعوبة نسيانه وضخامة حجم ألم فراقه لأن الحب طاقة كلما استثمرت منها أكثر، كلما تألمت لفقدانها أكثر.. وكلما تعلقت أكثر بمن تحب وأدمنت قربه، كلما كانت محاولة نسيانه كمحاولة تذكرك ملامح إنسان لم يسبق لك أن رأيته.. فكن منطقيا إذن، وحاول كبح جماح مشاعرك ولا تطلق لها العنان.. وكل شيء بمقدار!

استلقت على أمل أن تنهض لتغيير ملابسها، لكنها نامت مثقلة بهمومها وملابسها.. وما بين صحو وإغفاء بزغ فجر جديد ليوم جديد.. ستأكل بلا شهية، وتنفّذ مسؤوليات جبرية، وتنام، و.. وتنتظر ما ستحمل لها أيامها الآتية.

*

في قعر الظلام.. في جوف الخوف.. في عطش الصوت واللون.. في ذلك العصر الغريب الطقوس، كانت تتخبط في دوامة الحاضر المعجون بعصارة الماضي، والمبهّر بآتٍ مجهول الهوية والمعالم.. وقفت، فغاصت أرجلها في أرض هشة.. سبحت.. كان اليم متيبِّسا.. كانت هناك وحيدة بعيدة شاردة.. شاردة.. زهرة تلهو بها يد الرياح لا غصن يسندها، لم تتلق أيّ لقاح فمناعتها أضعفها نقص الشمس في هذه المدينة المكفَّنة بياضا.. هي من كانت تتغذى من لب الشمس وتتعشى من لهيبها وتستحم بنورها حتى يأخذ لونها ملامحها، وملامحها لونها.. فتشع نارا ونورا وجنتاها وتصير ثمرة يانعة قبل موسمها.

أي فيتامين ينقصها يا ترى؟ إنه عنبر الشرق وعبير المراعي ما ينقصها.. هناك حيث كانت تصطاد القمر وتضعه على حجرها، فتهديه بعض القبل ويهديها عطر الربى، وإن عطشا فمن معين الحب يشربا و يحتفي بهما الفراش وتزغرد البلابل ويغطيهما الدجى و يرقصان على أنغام الغدير ولحن

الخرير ويتعطران بالصدى والشذى، و يتوجهما المرج عاشقين من ذلك الزمان المنسي حيث كانت الأرض بالحب تكتسي وتشع بالصفاء والوفاء، ويضع على جبينيهما أكاليل ياسمين مطوقةا، والشجر بهما نشوان، والتّل ولعان يرمقهما بعين تتوق قريبَ الملتقى، والزنبق ولهان يسرق منهما الغزل ليلقيه ذات حظٍ على مسمع الفتون العابرات للسفوح والمنحدرات.. في ذلك الزمن البعيد/ القريب حيث كان الكون ملكها، والدنيا خلقت لأجلها.. حيث كانت عروس الحب المدللة .. هناك حيث اللاَّزمن، والمكان قلوب دافئة وأحضان فياحة، بالعطر فواحة.. حيث الأمان أعين تهيم بملامح لينة شهية بهية غضة الأفنان، تُرْشَقُ بالبسمات صبحا ومساء، في ذلك العهد.. كان لونها أخضر فاتحا، وكل همها أن يستفيق الوجود كي تفتح أبواب الكون، وتخرج لتجمع النجوم في إبريق وتنثرها في الأفق عبيرا ينعش الأوردة، فتلين ويجري بها دم صاف لم يلامسه ثنائي الممسك المسموم.. هي من كانت كل ذلك الصفاء والخواء والهناء، صارت اليوم جبل هم شاهق يشهق حزنا مكتوما، ويسيل دمعه مالحا، فيقتل ما تبقى في نفسها من شتلات الأمل.. ينهمر دمعها سيلا معبأ

بســموم الحيــاة حتــى يكــون بحيــرة شــديدة الملوحــة والســمّيّة و1 التلــوث لا يعيــش فيهــا حتــى المــوت ذاتــه.

مــن يــوم فارقتــه غاصــت في العتمــة وفي غياهــب الحــزن والصمــت والوحــدة والعزلــة الكونيــة والتيــه.. بدونــه كانــت حياتهــا موتــا مقنّعــا بأثــواب ملونــة وبســمات مصنعــة وأشــواك بشــكل ورود مزخرفــة تنفــث ســمّها عطــرا شــذيا.. لكنــه قاتــل أخّــاذ فتّــاك، يفتــك ببــطء وبــرود.. هــا هــي تــودع روحهــا قطــرات.. قطــرات، وروحهــا تغادرهــا دون وداع..

*

كانت تعيش الضياع بكل أنواعه في تلك المدينة الغريبة الملامح والوجوه، تلك المدينة التي لا تعرف لك فيها جارا، ولا تفرّق فيها بين مأتم وفرح.. ففي كليهما «الليموزين» العملاقة وأطواق الياسمين والبدلات المؤنقة وربطات العنق المنمقة والأظافر السحرية الملونة، وأجراس الكنائس الملحنة.. ها هي تتغلف بملامح مدينتها وتتقمّصها وتنغمس في طقوسها بلا سابق تقرير ولا قرار، وترفل في حرير مخمليّ وعطر عبيري.. وداخلها حزن تعفن وفكر تشتت وحب محنط تجمد، فزاد حجمه حتى انفجرت الأوردة..!

ماذا ستفعل ؟ ماذا ستفعل؟ تهاتفه؟ تأبى يدها أن تتحرك، تكاتبه؟ قلمها لا يتحرك زرها لا يُضغط.. حرفها متعنت.. كبرياؤها مبستر لا يتغير.. إسمنت مسلح لا ينحني ولا يهزم.. فلْتمت إذن متقوقعة في جحر كرامتها، ولا من سيأبه لموتها.. مجرد نكرة هي في مدينة قاتمة الملامح تعج وتضج هرجا ومرجا وصخبا.. خلف كل عين من عيونها حكاية..

وألـف روايـة.. وفي دروبهـا تنتشـر المرايـا المقعـرة الزوايـا لتذكـرك مـا أنـت كلّمـا حاولـت أن تنسـى، وتعرّيـك وتضحـك مـن عوراتـك وعبثيـة قـدرك الـذي سـاقك إليهـا بحثـا عـن قصـور العـاج، وعيـون بلـون السـماء والكسـتناء.

كانـت تفخـر وتحتفـي بشـموخ رجولـة أنوثتهـا، وعـزة كبريائهـا، وتشـرب نخـب هزيمتهـا سـمّا عتيقـا معتقـا، في حيـن تلعـن ملاكهـا الـذي غرهـا ووسـوس لهـا، فرفضـت شيطانه وغلبته وقهرت نفسها فتقهقرت حياتهـا.. تدعّـي القـوة وإرادة كينونتهـا و بأنهـا مثلمـا أحبتـه قـادرة أن تنسـاه.. في حيـن كانـت كل يـوم تهيـم علـى وجههـا في الأرصفـة ومحطـات البـاص والميـترو والسـاحات والمنتزهـات والحضائـر والحدائـق وضفـاف «السـان» عسـاها تلمـح عينيـه بيـن آلاف العيـون المختلفـة الأشـكال والألـوان، وتفتـش عـن وجهـه بيـن الزنـوج والهنـود والعـرب واليهـود والغجـر وأحفـاد «كريستوفر».. تطـارد طيفـه في نوافـذ السـيارات ومنافـذ العمـارات وواجهـات المحـلات وحتـى في سـاحات المـدارس والحضانـات.. لكـن لا وجـود لمـن تسـتجدي.. فقـد كانـت تهـدر الزمـن بـلا ثمـن.

قطعت شارع الحزن الطويل عساها تعثر عليه ولو صدفة، وقفت أمام المحل.. المحل كعادته يعبق برائحة الشرق وشمعداناته النحاسية.. ترددت كثيرا قبل أن تدخل، ثم دخلت. كان الدكان كعادته هادئا وصامتا لا يؤمُّه الكثيرون، لكن هو ليس هنا.. تقدمت منها فتاة باهرة الجمال.. سألتها بالإنجليزي:

-هل تحتاجين مساعدة سيدتي ؟

تلعثمت، فالمساعدة التي تحتاجها ليست سهلة المنال، ويصعب التعبير عنها. جمعت قواها وسألت:

- السيد عماد لا يأتي اليوم إلى المحل؟

أجابتها بالعربي:

-قصدك «البص»؟

-إيه.

هو مسافر للبرازيل لعند والدته...

صدمت وكاد يغمى عليها، وخرجت تجر خيبتها: لماذا تعاكسها الحياة هكذا ؟؟ حتى عندما قررت إنقاذ حبها والتبرع بكبريائها يأبى كبرياؤها

الرضوخ لأنه جزء من صورة ذاتها وتمنعها رقابة الحظ الملعون المسكون بلعنة الفرعون أن تفعل.

كيف يسافر دون أن يودعها؟ ألهذه الدرجة هانت عليه؟ إنه مخادع كاذب.. لو كان قد أحبها نصف.. بل ربع ما أحبته لما نسيها وتخلى عنها بهذه السرعة، ثم ماذا يفعل بالبرازيل؟

آه ، تذكرت؛ إنه قد أخبرها أن والدته مطلقة وتعيش مع زوجها الجديد بالبرازيل.

دخلت الشقة منهارة، استلقت على الأريكة اليتيمة.. اللعنة على المارد المسمى الحب! إنه لا يجلب غير الهم و الغم والتعاسة وعمى الألوان والأشخاص..! الحب بحر تشتهي لونه وصفاءه.. يغازلك.. يناديك بلطف فاتحا ذراعيه بلطف، ويستدرجك شيئا فشيئا نحو أعماقه الغامضة، وما إن يحتضنك حتى يلتهمك.. يكفنك ويدفنك، فتكون قربانا دسما لأحشائه النائبة، أو يبصقك جثة قاتمة هامدة، إنه عميق وغامض.. نرجسي وسادي.. يستلمك شيئا بنيانا كيانا ويرميك مسحوقا تذره الرياح العابثة العاتية وتلهو به على شاطئ النكبات المتتالية .

لـم تصـدق هاتفهـا الذي ينبئ برسـالة منـه : «أميرتي.. حبيبتـي.. وطني.. ذاتي.. أنـا آسـف علـى ما حـدث ذلك اليـوم.. كنـت فقـط أريـد أن أعـبر لـك عـن مـدى حبـي لـك وإعجابـي بـك.. أَوَ تظنيـن أننـي قـد أنسـاك؟ هـذا مُحـال! قلبـي ينبـض بحبـك حتـى آخـر يـوم في حيـاتي.. حتـى تعلـن وفـاتي .. آسـف فعـلا لكنني تلقيـت اتصـالا هاتفيـا مـن زوج أمـي يخـبرني بأنهـا نقلـت إلـى العنايـة المركّـزة ، و بـأن حالتهـا غايـة في الخطـورة.. والحمـد لله، هـي قـد تحسـنت وسـأعود قريبـا .. أحبـك».

هـا هـي تراقـص الأشـباح وتسـهر إلـى الصبـاح.. هـا هـي قـد عـادت مـن جديـد فتـاة لا تتعـدى العشـرين، تتمايـل علـى أنغـام عبـد الحليـم، وتدمـع عيناهـا للنـاي الحزيـن، وتنـزف مشـاعرها شـعرا يتطايـر ذات الشـمال وذات اليميـن، وأصبـح ضيـاء روحهـا يشـع ويطـوي أطياف السـنين، و ينسـيها الأنين ويشـعل لذة لا تسـتكين بـأن تحـب الحيـاة بـكل ألوانهـا وفصولهـا إن ارتـدت كشـميرا أو حريـرا، و تنـدم علـى مـا فـات في العتمـة مـن سـنين، فلا أجمـل ولا أحلـى مـن الحـب يغـذّي الـروح ويشـع نـوره ضيـاء ونسـيما ينعـش العالميـن.

مـر يـوم وأيـام بعـد تلقيهـا لتلـك الرسـالة، ولـم يأتهـا

جديد ولا خبر، فهل ستظل قابعة تنتظر؟ لا.. يجب أن تتصرف.. أن تكون متميزة وفعالة، وتنسى كل العقد، وتجتهد في سبيل سعادتها..

أجل ستكون براغماتية الفكر، براديمية المنهج.. ستضع فرضيات ومنهجية وخطة محكمة للوصول إليه واحتكاره للأبد..

ارتدت ملابسها، وفتحت الباب قاصدة التوجه للمحل.. ياللمفاجأة! إنه أمام الباب ينتظر.. لم تتمالك نفسها وارتمت بين أحضانه تحترق، وتلاقت الشفاه في عناق طويل.. ثم كمن يتخبطه الشيطان ارتجفت وارتعدت وابتعدت..

-آسفة لا أحب الحرام

-عن أي حرام تتكلمين ؟ إنه حب! نحن لا نؤذي أحدا.. فقط نسعد أنفسنا.. نعبّر عن حبنا..

-آسفة.. هذا ليس منطقيا لأننا لو انطلقنا من هذا المبدأ سنفعل كل شيء مادام يسعدنا ولا يؤذي الآخرين.. كأن أتزوج أخي مثلا...

-لكن زواج الإخوة يعطي أولادا مرضى

-لن ننجب أولادا مثلا؟

-كيف تقارنين قُبلة بين عاشقين بزواج الإخوة، أو الشذوذ..؟!

-الحرام.. حرام! الدين لا يتجزّأ

-بل هناك كبائر، وهناك مكروه.. و.. أما مجرد قُبلة وحضن، فلا حرام ولا لعنة فيهما..!

-لا.. لا! هناك أشياء تربينا عليها ولا يمكننا تجاوزها، وخطوط حمراء نقف عندها دون تساؤل لأنها البعد الفاصل بين العقل واللاّعقل.. بين الإنسان والحيوان.. بين التسليم والإيمان وبين الإلحاد ....

-ماذا تريدين إذن..؟ الزواج ؟ لا مانع لدي.. فلْنتزوج!

-لكنك لا تعرف عني شيئا

-كل هذا ولا أعرف عنك شيئا؟! أعرف أنك الحب والأمان والحنان.. أنت أمي وأختي وصديقتي وحبيبتي وكل حياتي.. أنت امرأة بحجم وطن!

-أقصد حياتي الماضية..

-أنت ملاك طاهر لا ماضٍ له..

-بل له!

ماذا ؟

-أنا.. أنا كنت متزوجة، ثم إنني أكبرك سنا..

-السن؟! لا يهمني، فقد أحببتك، ولن يتغير ذلك بسبب رقم مكتوب في سجل مهجور، ولا علاقة للحب بالسن.

-لكن متزوجة

-لِمَ لم تخبريني بهذا..؟

-لم تسألني!

-لم أتوقع هذا.. على العموم ماضيك مات ودفن، ففردوس التي أعرفها ولدت يوم أحببتها..

-لكنه كان زواجا عرفيا!

-ما معنى عرفيا؟!

وانفجر ضاحكا، ثم أردف:

-وتتظاهرين بالشرف وترفضين مجرد قبلة! يالخبثك و دهائك..! كنت فعلا تستدرجينني لشباك

حبك كما يستدرج العنكبوت صيده.. آسف سيدتي انتهى الكلام..!

يا رجلا لأجلك قطعت أوردتي بنور الفجر، ولونت بدمي وجه الشمس ورحت أجتثّ أحشاء الوجود وأمنّي نفسي بالخلود، وأعزف لحن الشرود.. غازلت انكسارات روحي وراودت عن روحها الريح.. عتقت أشجاني قوارير أمانٍ.. رقصت حروفي فوق أحزاني وجفّت في حلقي الأغاني.. قضيت وتيتمت ألحاني.. كيف تتركني وحيدة و تمضي، تتركني لأحزاني وأشجاني وأخطبوط الزمان، من لي بعدك في هذه المدينة الحزينة بل هذا الكوكب؟!

من دونك أنا يتيمة مسكينة أعيش كنبتة صبار في القحط الأعظم في الأخدود الأعظم والأعمق من الصحراء الشوكية العظمى، لكنني سأصبر متأكدة أنك ستعود إليَّ يوما.. ستجرفك أشواقك.. ستحرقك نيران الحنين.. وستلين وتبحث عني بين تلافيف السنين، وإن لم تفعل، فهذا يعني أن كل ما أحسسته وأحسه نحوك كان وهما وإنّني الآن فقط كشفت بواطنك.. لن أحزن.. لن أغضب.. لن أكسر أصاصيص الزهر والمرايا.. لن يندفع

الأدرينالين في جسدي.. سأحافظ على هدوئي واتزان روحي.. سأكتحل الحب وأنتعل الخلود، وأنتظرك متى إلى قلبي تعود.. سأتوشح نور الفجر، وأتعطر بالسحر، وأصطلي بنار الشمس ونور القمر وأصلب على بوابة الزمن أغزل من خيوط الألم أمل.

انتبهت من ذهولها على صوت منبه شاحنة إذ أنها كادت أن تقطع الطريق والإشارة الحمراء مشتعلة.

دخلت.. ارتمت على الأريكة المنهكة من كثر تداول الأجساد عليها، و إذ تسمع الجرس.. فتحت الباب كان هو.. أجل هو بوجه أصفر لامع وعينين برّاقتين.. دخل يتمايل وهجم عليها يقبّلها:

-أحبك.. أحبك، لا أقوى على فراقك.. سأموت من دونك.. أنت أغلى وأحلى ما بعمري.. غجريّتي ذات الجمال الشرقيّ الملامح.. أحبك أنت فقط.. أنت دون غيرك.. أرجوك أحبيني.. ضميني.. أريد نهدا وصدرا يعوضني عن حرماني من نهد وصدر أمي التي حرمت منها وأنا ابن مراهقة.. تائه بين تلاطم مشاعري وأزمة هوِيَّتي!

دفعته عنها قائلة :

-أنت ثمل أرجوك

-بل متيم بحبك وثمل بشفتيك

-أرجوووووك!

ارتمى على الأريكة محبطا و ذهب في سبات..

أطلّت أولى ابتسامات الوجود الدافئة لتحرك حياة جديدة وأملا متجددا، فإشراقة الصبح هي تجدد للأمل، ووعد بعقد مؤقت آخر على ظهر هذا الكوب الدوّار، وكل ذلك مدوّن على كف من نحب.. فالدنيا بدونهم قفار خالية.. فراغ.. عدم!

وجودهم لذة عطاءات الحياة المستمرة، وعودة المشاعر المسلوبة، وتوهج طاقة الحياة.. وهو ما يغذي إرادة البقاء.. وجودهم نسغ الفكر والروح وراحة الحياة.

كانا ملستقيين في براءة الأطفال كلاهما يحس أنه ابن الآخر وأمه وأباه..

-صباح السفر منك إليك أيها الدفء والوطن.. أيها الأمل المنتظر..

-صباح مليء بحضوركِ حبيبتيي، مشرق بوجه حبك وفتنة هواكِ.. يا نبع عِباراتي وعَبراتي، ولعالم الخلود عبّارتي.. حبيبتي..

-أحبك ولن أستغني عنك أبدا.. أنت روحي وسر وجودي.. أنت عمري.. هل يوجد أكثر من هذا؟ أتحدى العالم كله لأجلك..

أما زلت تسألين هل أحبك؟

أيكفيك إن قلت أنت شروقي وغروبي وأحلامي في منامي؟

ما أسعدني يوم أعطيك اسمي، و تعانق روحك روحي..!

الحب مخلوق.. كائن حي يحتاج الرعاية والحماية والوقاية للحفاظ عليه في حالة صحية، ويحتاج إلى الوعي والإرادة والتوافق الفكري والعطاء المستمر بلا كلل ولا ملل.. ونكران الذات، والإيثار و تسبيق الواجب على الحق.. كما يتطلّب الثقة والشعور والإشعار بالأمان، والصراحة والحوار والصدق والغفران.. لا أحد منزّه عن الوقوع في الخطيئة، فسبب وجودنا على هذا الكوكب كان

الخطيئة، فهي إذن فطرة مطبوعة في كينونة الإنسان، لذا يجب أن نتعلم.. أن نغفر.. أن نسامح.. لا يوجد شخص مثالي في أي شيء .. بل يجب أن نصقل شخصياتنا بأيدينا ونجعلها متكيفة مع مقاييس الحب والارتباط.. عِديني أن نكون واعيين بهذا.. عِديني بأن نكون جديين وواقعيين وعمليين و علميين في مواجهة أية مشكلة أو عقبة ستصادف مسار حبنا .. و أن يضحي كل واحد لأجل سعادة الآخر، و أن يرى فرحته في عيون الآخر..

سأعطيك اسمي وثروتي وحياتي، ولا أطلب منك غير حضن أمٍّ، ولمسة حبيبة وفيّة زاهدة عن سواي..

أريدك زوجة ورفيقة وعشيقة وصديقة صادقة .. لا أرى بعدك امرأة أخرى، وتكونين لي فراشا وأكون لك غطاء، و تكونين لحدي ومثواي الأخير..

قطع كلامه رنين الهاتف:

-آلووو...

انهار على الأريكة باكيا..

-ما بك حبيبي؟!

قطـع نحيبـه لسـماع مـا كان ينتظـره.. ارتمـى في حضنهـا باكيـا كمـن يبكـي علـى صـدر أمـه.

*

كانـت في المطـار تودعـه باكيـة ويديهـا في حضـن يديـه الدافئتيـن:

-حبيبتـي كفـى بـكاء! كلهـا أيـام أحضـر جنـازة والـدتي وأعـود، وسنسـافر فـورا لنتـزوج وسـط أهلـك وجيرانـك، ونُمضـي أجمـل أسـبوع عسـل ثـم نعـود.. أنـا ملـك يديـك، لـو طلبـت روحـي خذيهـا فـلا معنـى لحيـاتي بدونـك..

ودعتـه، وودعـت معـه فرحتهـا الصغيـرة التـي مـا تـزال جنينـا تخـاف أن يجهـض.. ودعتـه بالدمـع الأسـود المتهاطـل بسـخاء وكـرم العرب.. ودعتـه وقلبها ينقبض وقـد سـيطرت علـى عقلهـا كل الأسـاطير القروسـطية والخرافـات الجاهليـة ، والأفـكار التطيّريّـة.. متـى سـيعود؟ متـى؟

عـادت مـن المطـار، استلقت علـى الأريكـة منهكـة القـوى خائـرة النفـس والجسـد، فتحـت حسـابها علـى الفيسـبوك تريـد تشـمم عطـره مـن أسـطره وكلماتـه، تريـد معانقـة صـوره ومغازلـة أشـعاره، تريـد البـكاء

علـى أطلالـه.. لكـن قبـل أن تفتـح صفحتـه أثارهـا خـبر نشـرته جريـدة «جوغنـال دو مونتريـال»: (سـقوط طائـرة - Arbus -A310-300 - التابعـة للخطـوط الجويـة الكنديـة رحلـة رقـم : A3400، والمتوجهـة مـن مطـار «بيـار إيليـوت تريـدو مونتريـال» باتجـاه العاصمـة البرازيليـة برازيليـا، عشـرون دقيقـة بعـد الإقـلاع بسـبب سـوء الأحـوال الجويـة، وقـد قضـى طاقـم الطائـرة و كل الـركاب ومـن بينهـم رجـل الأعمـال و الناشـط السياسـي الكنـدي مـن أصـول لبنانيـة «عمـاد كـرم» و أخويـه وأختيـه الذيـن كانـوا مسـافرين لحضـور جنـازة والدتهـم الصحفيـة البرازيليـة مـن أصـل لبنـاني «كلـود جـاد» .

إنطلق صوت المضيفة قائلا :

– بعد قليل تحط بنا الطائرة على مطار القاهرة الدولي، درجة الحرارة في الخارج تبلغ 28 درجة مئوية، الرجاء إبقاء الأحزمة مربوطة حتى التوقف التام للطائرة... وتأكدوا من عدم نسيان أي شيء على متنها نلقاكم قريبًا في رحلة ممتعة .

أمتعة... ههه.. هو متاع واحد أحد صمد... تمنت لو عادت محملة بالهدايا من كنزات كندية وعطور وشكلاطة، لكن للأسف تجري الظروف بما لا تشتهيه النفوس ...

خرجت من باب الوصول شاحبة الوجه من التعب وثقل الذاكرة المنهك...

هنا ومن باب آخر قبل خمس سنين ودعت أهلها فرحة رغم ألم الفراق تمني نفسها بأحلام وآمال... ولكن للأسف فكما كانت تقول ستيتة رحمها الله: «تيتي... تيتي زي ما رحت زي ما جيتي»...

لا زي إيه؟ ياريت زي ... ده أسوأ وأسوأ ...

مطلقة بلا زواج (عقد)، ثيب يفترض أنها عذراء...

وأين؟

في مجتمع يعشق سفك الدماء، فمن لم يسفك دم امرأة على فراشه لم يعش، وكأن تلك الثانية هي المنى وذروة المنتهى، وكأن تلك البكر لن تغدو ثيبا أبدا... بل يتمنى أنه كلما مزقها نبت لها غشاء جديد كي يحتفل بفحولته ورجولته وفروسيته ...

إننا قوم كتب علينا الغزو وسفك الدماء و جمع الغنائم... و لو بطريقة أكثر تحضرا من أسلافنا .

ها هي في طريق عودتها لتلك القرية المنسية، الساقطة من كتب التاريخ والجغرافيا، تلك القرية الراقصة فوق حزنها... تعلن عن قهرها وغيضها وترثي عنفوان مجدها الواعد الضائع... تذوب ملامحها في دماء أبنائها الهائمين بحثًا عن إكسير السعادة خارج أسوارها الكئيبة وعالمها

المدنّس بكل أنواع الرجس المشقّر المعبأ بغبار الفناء واليأس والإحباط...

قرية تقتل إنسانية الإنسان وتحوّله إلى مخلوق بيولوجي محض... لايعرف من الحياة إلا الأكل والنوم والتناسل لمن استطاع إليه سبيلا... جو خانق يشوّه الأحلام ويحيلها خرافات صعبة المنال...

حين تدق طبول الغياب وترقص أشباح مشوّهة الملامح على أنغام طقوس سادية وأعراف بوهيمية تلتهم الأمل التهاما وترشف أرواح أبنائها ممزوجة بقطرات عطر القرنفل النابت من رماد الفرح. ذلك الفرح الذي قضى حزنا على قصص لم تكتمل، وخوفا من لعنات ترسلها الشمس عبر ضوء القمر...

تمد تلك القرية أظافرها الطويلة لتحفر حكاياها على الوجوه المتزاحمة أمام الشبابيك والجثث المتهالكة على كراسي المقاهي وتحت الأشجار في قيلولات الصيف الملتهبة، تنتظر فرجا قريبا، ويصبح اليوم أمس ويمضي إلى

الركن المنسي.. و»سنتا كلوز» يزور كل القرى والمدن المعمورة إلا تلك القرية ينساها فلا يأتي..

استقبلتها أمها بأحضان وأشواق لن تعدمها خطايا الكون كله... قلب الأم وطن لا تغلقه الذنوب والخطايا... أما أبوها فتظاهر بالقوة والبرود لكن ما فتئ أن أخذها في حضنه الدافئ باكيا:

- ليه يا فردوس، ليه؟

ما ذنبها؟ زواج عرفي؟ أولستم قوما تقدسون الأعراف؟ لمَ هذا العرف بالذات مذموم؟ حب وارتباط نوته رسميا فسبقتها المنايا وخطفته منها؟ من يدري ربما لو لم يقترب منها ماحدث له ماحدث...

لعنة فرعونية سلطت عليها وتعدتها لمن يحاول الاقتراب منها... أليس من يحاول تشريح الفراعنة يصاب بلعنتهم؟.../

*** **يعتقد البعض بأن أي شخص يزعج مومياء**

لشخص مصري قديم، خصوصا لو كان فرعون فعليه لعنة. وقد تسببت هذه اللعنة التي لا تفرق بين اللصوص وعلماء الآثار الحظ السيء أو المرض أو الوفاة.

ومنذ منتصف القرن العشرين، ناقش العديد من الكتاب والأفلام الوثائقية تلك اللعنة الناجمة عن أسباب علمية تفسيرية مثل البكتيريا أو الإشعاع. ومع ذلك، فإن أصول الحديثة للحكايات المصرية عن لعنة المومياء وفي المقام الأول في الثقافات الأوروبية، والتحول من السحر إلى العلم لشرح اللعنات، وعلى تغيير استخداماتها من اضطراب القتلى لتسلية الجماهير في فيلم رعب، تشير إلى أن اللعنات المصرية في المقام الأول ظاهرة ثقافية وليست علمية.

على سبيل الحص، ثمة حالات عرضية من اللعنات القديمة الحقيقية تظهر داخل أو على واجهة قبر، كما هو الحال بالنسبة للمصطبة (مدفن مصري قديم) من خينتيكا أخي من السلالة السادسة في سقارة.

ويظهرون على ما يبدو كتوجيه مباشر نحو الكهنة لحماية المقبرة بعناية والحفاظ على طقوس الطهارة بدلا من التحذير من اللصوص الممكنين.

ورغم ظهور قصص اللعنات التي تعود إلى القرن التاسع عشر، فإنها تضاعفت في أعقاب اكتشاف هوارد كارتر لمقبرة توت عنخ آمون. لكن لم يكن هناك لعنة خطية حقيقية موجودة في قبر فرعون. وقد تم النظر في الأدلة لمثل هذه اللعنات المتصلة بالملك توت عنخ آمون لتكون ضئيلة بحيث يتم النظر إليه ك «فخ التصفيق المحض» من قبل دونالد ريدفورد***

أما الجيران فأسرعوا مرحّبين مهنّئين مزغردين بعد الخبر الذي أشاعته أمها أنها عادت تحمل شهادة كبيرة... كبيرة جدا لم يسبق أن حازها أحد أبناء القرية وقد تُوظّف بها وزيرة أو سفيرة... وبدأ أهل القرية يخطبون ودّها كي تكون بنت أصل وتحقق طلباتهم عندما يتحقق المراد المرتقب.

لكن المراد لم يتحقق... وبرّرت أمها ذلك بقلة الحظ والواسطة والمحسوبية والرشوة وبيع الأجساد... ونحن عائلة شريفة نموت جوعا ولا ندوس المبادئ– قالت الأم... فكان الجيران دوما يواسونها بالجملة نفسها:

– الله كريم يا أم الدكتورة فردوس.

ووُظفت فردوس معلمة لغة إنجليزية بمدرسة القرية، حيث السّأم والضّجر والضّجيج وصراخ الأطفال وشجار النسوة الممزوج بالأناشيد وبصوت الآدان وببكاء المآتم وزغاريد ا لأفراح... بانوراما أصوات مختلفة الذّبذبات والاتجاهات و المصادر.

وعاد آدم يطارد فردوسه الضائع... عاد ابن عمها– مغاوري– يطاردها عارضًا حبه الذي لازمها من الصغر ولم يحرك في أنوثتها ومشاعرها شعرة... وبعد أن أحبت وعرفت غيره، أكيد ازدادت منه نفورا ...

وبخلاف مسألة الحب والعواطف المنعدمة، فإنها لا تريد التورط في زيجة قد تنجب منها مخلوقات مشوهة

أو عالة على الحياة تملؤها عقد النقص والإحباطات في عالم لا يرحم المختلفين والضعفاء، فما بالنا بالمتخلفين عقليا...

ثم ترى لمَ لمْ يحرّم دينها هذا النوع من الزواج العائلي الذي ينتج عنه غالبا أطفالًا معاقين ومشوهين ومرضى... ولم ينه مجرد نهي عنه؟/

***** تؤكد معظم الدراسات العلمية أن الزواج اللحمي الداخلي أو ما يصطلح عليه علميًا الاندوجامي أو الأندوغامي هوالسبب الرئيسي والأهم في الأمراض الوراثية الشائعة، ومن أبرزها أمراض هيموغلوبين الدم «خضاب الدم» والعيوب الخلقية الاستقلابية والأمراض أحادية الجينات الشائعة، وكشفت العديد من الأبحاث العلمية التي أجريت حول زواج الأقارب أن الإصابة بتلك الأمراض والإعاقات لدى الأطفال من أبوين قريبين واضحة حيث تكون الفرصة أكبر لدى الزوجين من الأقارب في حمل صفات وراثية متنحية عندما يكون كل واحد من الأبوين حاملاً**

للصفة المسببة للمرض، وتؤكد بعض الدراسات أن 75 % من الإعاقات سببها هذا الزواج ***

هل كان الدين متشددًا فقط في منع زواج المرأة من غير المسلم؟ ولمَ المرأة؟ لمَ يحق للرجل الزواج من مسيحية أو يهودية والمرأة لا؟؟ والآية التي تحرم ذلك تحرّمه على الجنسين ، لمَ يُستثنى الرجل وتعد المسيحية أو اليهودية كتابية ويحق له الزواج منها ... ويعد المسيحي أو اليهودي مشركا وليس كتابيا... كل هذه الأفكار جعلتها تتذكر حبيبها الرسام الكيبكي الذي أصبح مشهورا عند ابتعاده عنها، ربما لو استمرت علاقتها به لتكهرب وأصابته لعنتها.

القرية اليوم مقلوبة على رأسها ... الكل ، نساء ورجال و أطفال يركضون في الدروب والحقول للتفرج على الفرقة التلفيزونية التي جاءت خصيصا لتصوير ذلك البيت المهجور المسمّى بالبيت الملعون... الذي يشاع في القرية أن شبحًا يسكنه ويخرج كل منتصف ليل ليجوب دروب القرية باكيا، قدم المخرج المكرفون لكهل و طلب من الرجل أن يسرد عليه الحكاية:

– قال الرجل: «سكينة» فتاة مسكينة يتيمة الأم ومنكسرة الجناحين... ربنا يرحمها ويبشبش التربة إللي تحت راسها... كانت تعيش مع والدها هنا في هذا البيت بالأحرى الكوخ، حيث كان والدها حشاشا يقضي جزءً من نهاره يجري وراء الخرفان والحمار، وفي المغرب يضاجع أحدهم ثم يتجه للمقهى يشرب الحشيش ويلسن على مؤخرات وصدور نساء القرية، ولا تسلم من لسانه حتى العجائز وزوجة شيخ الجامع. وكان يضرب ابنته المسكينة «سكينة» بنت السادسة عشر، لأتفه الأسباب ويحبسها ويمنعها عن الناس...

وفي إحدى الليالي عاد في الفجر مسطولا فأنقض على فلذة كبده وراح يلتهم جسدها الطفولي الناضج قبل أوانه كما يفعل بخرافه وبرفيقته الراقصة «شوشو».

ولم تدر المسكينة إلا وهي تنهال على رأسه بقلة طينية فأردته قتيلا- حسبما اعتقدت- ثم بدأت تجري وتنزف وتجري وتنزف إلى أن وصلت الترعة فرمت نفسها فيها، وأخرجوها في صباح اليوم التالي جثة منتفخة هامدة. أما الوالد فلم يمت واكتشفته الجارة...

- قاطعته امرأة عجوز قائلة : ما هو أنا الجارة حضرتك يا بيه...

فأعطاها المذيع المكروفون، فسردت:

- ذهبت كعادتي أطل على الفتاة، لأن أمها وصتني عليها وهي تحتضر، وهي مسكينة مقطوعة إلامن خالة وقطعت رجلها عن هذا البيت نظرًا لسوء معاملة صهرها ونظراته غير البريئة لها... لا علينا، حملت لها بعض الفطائر الساخنة ودخلت فإذا بي أصدم برؤية الرجل

الغارق في دمائه والفتاة التي لا أثر لها. وتبين لنا أنه لم يمت لكن حكم عليه بالسجن بعد اعترافه بما حدث...

أما الفتاة فدفنت لكنها كل ليلة تخرج من قبرها ملفوفة في كفنها وتتمشى في شوارع القرية وترمي بحجارة ساخنة محرقة كل من تصادفه، وحتى بعد هدم الكوخ وبناء عمها منزلا مكانه أصحبت تدق أبواب المنزل وترميه بالحجارة وتشعل النار في أشجار الحديقة... فأحضروا الشيوخ والرقاة بلا فائدة فغادرت العائلة المسكن وظل البيت مهجورا...

قدم المذيع المكرفون لفتاة سائلا:

- هل سبق أن رأيت الشبح؟

- قالت: وهل أنا رَجُل؟ الرجال وحدهم من يخرجون قبل الفجر ويعودون بعد المغرب... والأشباح لا تخرج إلا بين هذين الوقتين...

ثم سأل المذيع شابا مفتول العضلات:

– هل تخاف الشبح؟

– فقال: مَن لا يخافه؟ حتى شيخ الجامع والدكتور وحيد طبيب المستوصف يخافانه...

انتبه المخرج لفتاة تمر أمامهم لباسها يختلف عن لباس باقي الفتيات تمشي بكبرياء ولم تلق مجرد نظرة على الجمع، فاقترب منها قائلا:

– ممكن كلمة يا آنسة؟

– آسفة ليس لذي وقت.

فزادته لا مبالاتها إلحاحا:

– من فضلك لن آخذ من وقك الثمين أكثرمن خمس دقائق.

– قالت على مضض: تفضل.

– قال : هل تعرفين قصة الشبح؟

- وأعرف الشبح ذاته– قالت.

- قال باستغراب: هل سبق لك أن صادفته؟

- قالت: أقصد الفتاة التي ماتت غرقًا ويقال إنها تخرج من قبرها وتدق الأبواب وتضرب الناس بحجارة نارية... كانت صديقتي في الابتدائي، ثم أوقفها أبوها عن الدراسة وحبسها في البيت إلى أن حدث ما حدث.

- وهل تؤمنين بالأشباح يا آنسة؟

- وما يفيدك إيماني أو كفري؟ ثم أنا ماعدت أؤمن لا بأشباح ولا بملائكة... وإن كان شبح سكينة يجول القرية لمَ سيؤذي الناس؟، وهي كانت فتاة طيبة بريئة مسالمة لاتؤذي نملة... إلا إذا كانت تفعل ذلك انتقاما لنميمتهم و أكاذيبهم و....

- قال: ولكن، لو لم يكن الشبح حقيقة كيف تؤمن به كل القرية؟

- قالت: وهل كل ما يؤمن به الناس حقيقة؟.. يولد

أبناء القرية فيلقّنون أفكارًا على أنها حقائق مطلقة لا ريب فيها ويربون وينشّؤون على أنه لا يحق لهم مجرد حق التشكيك أو التفكير وطرح القضية على العقل والمنطق، وأن مجرد التفكير أو التساؤل سيجعلك تتعرض لسخط القوى الغيبية والخوارق والأرواح... وكثيرا ما يؤذى فعلا أشخاص يزدرون أعراف القرية ومقدساتها، ربما ليس بسبب الارواح ولكن بسبب الوسواس وعقدة الذنب التي تضعف أعصابهم وتجعلهم فريسة لأمراض جسدية وعقلية...

منذ ذلك اللقاء أصبح المذيع «أكرم» يتردد على القرية فقط ليلقي السلام على فردوس أو يتفرج عليها وهي تودع تلاميذها عائدة لبيتها...

سأل عنها وقيل له أنها فتاة من عائلة طيبة وشريفة، أكملت دراستها بكندا وعادت بشهادة كبيرة تخولها لمنصب عال جدا، لكن حظها وأحوال البلاد التي تهمش المستحقين جعلتها تكتفي بوظيفة مدرسة...

كلما سأل عنها سمع نفس الحكاية، يبدو أن سكان القرية يقدسون «فردوس» كما يقدسون أشياء كثيرة أخرى... أما هو فكان يردد دوما نفس الجملة وهي:

– جميلة و أنيقة أيضا وتستحق مكانا أحسن من هذه القرية... فيضحك بينه وبين نفسه عندما اكتشف أنه أصبح ببغاء مرددا كالبقية، صحيح من عاشر قوما...

وتفشى الخبر في القرية كالنار في الهشيم... المذيع الوسيم ابن القاهرة مهتم بالأستاذة الكبيرة أكيد سيخطبها... وهنا جُنّ جنون ابن عمها مغاوري وأعمته الغيرة، أبعد كل هذا الانتظار يفوز بها القاهري؟ كلا لن يكون... لن يكون... فاعترض طريقه في إحدى المرات وقال له:

– هل تنوي خطبة ابنة عمي فردوس؟

– إن توافقت أفكارنا ومشاعرنا لم لا؟

– هل حدثتها؟

– ليس بعد، ولكن بما أنك ابن عمها أكيد أنت

تتمنى سعادتها وقد تكون فاعل خير، وترتب لنا لقاء.

– أكيد ولم لا؟ لكن أليس ضروريا أن تعرف كل شيء عنها قبل ذلك؟

– أكيد وما هدف لقائي بها؟

ضحك مغاوري ضحكة خبيثة أبدت أسنانه غير المتناسقة وقال:

– وهل تظن أنها ستقول لك كل الحقيقة؟

– لِمَ لا؟ وهل حقيقتها مخزية؟ وإذا كان فكيف عرفت أنت دون باقي أهل القرية؟

– أنا ابن عمها وساكنين منزلين متجاورين وأسرارهم كلها عند عمتي التي تعيش معهم وأسرار عمتي عند أمي، وأسرار أمي طبعا عند إبنها حبيبها...

– رد المذيع بضجر واضح: هات ما عندك دون مقدمات طويلة ومملة.

– أنا ممل؟ ربنا يسامحك يا بيه؟

– أووووف تكلم وإلا دعني أمضي بسلام.

– أنت متحمس يبدو أنك أحببتها فعلا.

لم يرد المذيع عليه وأدار مفتاح تشغيل سيارته... وهنا أحس مغاوري أن الصيد الثمين ينزلق من بين يديه وربما لن تسنح له فرصة أخرى... وقال في نفسه:

– السماء لاتمطر فرصا ذهبية، لذلك من جاءته الفرصة فليستغلها ولا يؤجلها، ثم يقضي العمر يبكي على أطلالها... فقال بترج :

– والنّبي لا تغادر، سأخبرك حالا، فردوس التي أنت طائر بها ذهبت لتتم دراستها بكندا لكن للأسف لم تفعل بل توقفت عن الدراسة وتاهت في دوب العشق والانحلال والعلاقات، وكما ذهبت عادت، بل الأدهى أنها ذهبت عذراء فعادت... هههه بعيد عن ولاياك... وتدعي أنها تزوجت عرفيا... مالفرق بربك بين ما يسمى بالزواج العرفي وال....

– قاطعه المذيع: أرجوك توقف، لا أريد سماع المزيد... وأدار المحرك وانطلق.

أما مغاوري فانطلق سعيدا يغني؛ اتمختري ياحلوة يازينة... وفي مدخل البوابة المشتركة بين المنزلين صادف فردوس فنظر إليها وانفجر ضاحكًا...

طول الطريق كان يفكر:

– ماذا حدث لي، ومن هي تلك المرأة حتى تهزّني أخبارها؟... ألم تكن مجردعابرة سبيل غريبة؟، أنا الذي تتقرب النجمات لي، وتخطب ودي أرقى السيدات أهتز لفتاة قروية لا أعرف عنها إلا ما تتداوله ألسنة الفلاحين السذج من هراء وخزعبلات، وما أكثر خزعبلاتهم وتخاريفهم وأساطيرهم ومساطيلهم بمخدر وبدونه.

ولكن شيء غريب يثيرني ويشدني إليها، ففي عينيها سحر غريب وفي صوتها جاذبية، ليست أحلى النساء ولا أبهاهم ، لكن هي... هي... هي وحدها فردوسي المفقود...

وماذا لو كان كلام ابن عمها صحيح؟ ولمَ يكون صادقا؟ وربما فعلا هي مطلقة، وهل هو ذنبها؟ ولمَ الحيرة؟ غدا أذهب لمقابلتها وسأسألها، لكن بأي صفة أسألها أسئلة شخصية كهذه؟ محرج محرج... سأواجهها وأخبرها أني أحبها وعازم على الارتباط بها...

فردوس كانت أيضا تفكر فيه:

- غريب أمر هذا الرجل لمَ يسأل عني؟ أظنه... لا، أعوذ بالعقل الحكيم من الحب اللعين، ألا يكفني ما قاسيت... لكن هو رجل تتمناه أية فتاة... ههههه... فتاة ليس مطلقة مثلي، ولكن هل أصلا أنا مطلقة؟ لا أدري ما سيكون حكمه على زواجي العرفي... مالي أنا ما الخطب من هو؟، ومن يكون وما أدراني ما نوياه؟

صدقت الشاعرة حسيبة طاهر إذا قالت:

الراحلون موتى دفنونا وانسحبوا
والقاصدون لمرافئنا قطاع مشاعر

متربصوون بأمانينا
غادرتنا أشياؤنا الأليفة
وما خلّفت لنا غير وحشة رهيبة
***

ألوان الريح وريح المطر
تتراقص على عتبة الفجر الغريب
عن أعين نمت في ظلام المدينة
عن أرواح تجلدت داخل منافيها
تناسخت تفسّخت ما يدرينا؟
***

ألا أيها الراحلون خذوا كل متاعكم
وغادروا محملين بأكاذيبكم
كما جئتمونا ذات غزوٍ بنصركم مزهوينَ
قد عقمتم مشاتل أفراحنا الصغيرة

فخذوا ذكراكم وتاريخ سطوكم

وأساطير بطولاتكم

حكاياكم ما عادت تعنينا

خطاياكم حفرت بالشوك على نواصينا

فأي طلاسم سترقينا... وأي ترياق سيشفينا

وأي وطن بعدكم سيأوينا؟

ثم قالت في نفسها: سأنام أحسن لي، على رأي أم كلثوم:

حب إيه الي أنت جاي تقول عليه

هو أنت قبله عارف معنى الحب إيه

لما تتكلم عليه!

آآآآه منك يازمن... آآآآه بين ماض يشلني وحاضر يشدني... تمض بيَ الحياة مرة تحضنني وأخرى تركلني... مارد يعشعش في أعماقي يكبل تجدد ذاتي ويعبث بميكانيزماتي... تلبسني الأفكار وتنتعلني الأقدار...

قناصة اللا وعي متربصة لِوَأدِ أي ومضة عابرة محتشمة كانت أو سافرة.... أين المفر من جذور في أعماق الروح ضاربة... أين المفر من لقاح سبق لبن الأم للأوردة... منحتني الأقدار روحا ثائرة تصارع عوالم جائرة على أرض سادية... للدماء متعطشة وعلى الجثث متلهّفة ... وحياة عن العدالة مضربة... كأن آلهة الشر بلا رقيب عابثة... أي قربان يرضيها؟ وأي رشوة ستغويها؟. أي فتنة تلهيها؟...

أطفال ما عرفوا يوما حضنا... نساء ماعرفت يوما بعلا ... مجانين ... عميان... جياع ... حر وقر ... ومن المصائب كر وفر ... مؤمنون وكافرون أمام رحى الشر متساوون ... منهم طاعمون آمنون ... وأخر أحياء يدفنون ... فمن المبتلون ومن المنقومون ؟؟؟

أعلم أنكم مثلي لاتعلمون ... مسكين هو عقلي الأحمق راح يسألني إذ رمت منه إجابة ونسي أنه قائد فكري وبدونه ألقى الجنون ...وهل يسأل عاقل مجنون؟؟ نعيش دوما و كأن هذه اللحظة عابرة ومؤقة ومقدمة

للحظة القادمة، كأن اليوم مقدمة للغد وكأن الآتي أفضل من الحاضر، وبعد لحظات يصبح الحاضر ماض فنحِّن له و نبكيه ،الحاضر دوما مظلوم، فالإنسان يعيش بين حنين لمافات وتطلع لما هو آت . . .،و الحقيقة أن حياتنا هي اللحظة الآنية التي سنندم على فواتها ونرثيها ونحِّن لها غدا، فعش وكن سعيدا الآن و لا تنتظر إلى الغد فقد يأتي الغد و قد غدوت ذكرى مرثية و على الغالب منسية. . .

دائما يتوهم الإنسان أن اليوم مجرد طريق عابر والغد هو الأهم، ويصل الغد ولا نجد السعادة و الراحة التي صبونا إليها و ضحينا بالأمس لأجلها . . .فلا يوجد طريق يؤدي للحياة الحياة ذاتها طريق بعضه معبد و بعضه وعر و موحل ، ولا توجد محطة هي الهدف، فبعد كل محطة نواصل السير و الكفاح من جديد المحطة الوحيدة هي الموت . لكن كيف السبيل للعيش الرغيد والماض يسكن الحاضر و يحتجز الآتي ؟؟،كيف السبيل للعيش الرغيد والناس لا ترحم ،و الذاكرة لاترحم ،والأقدار لاترحم .... لو كانت الذاكرة تغسل أو ترمى وتستبدل بأخرى جديدة لكان واقعنا أرحم وعالمنا أجمل ،لكن للأسف الذاكرة

تتعفن وعدنما تصبح الذاكرة عين حمئة ضحلة لغروب الحقائق الساجدة لمردة الزيف ... وتجار الضَّلال الهاربين من مواجهة ضوءِ الشمس الساطع على الأرقمة الغابرة في الطلاسم ،المخضبة بالحبر السرِّي و الدم المراق لحفظ خزائن الكنوز المزيفة ،من أعين الفضوليين و المتطفلين الباحثين عن السر الأعظم ...عندما تصبح الذاكرة عملة ذات وجهينِ متنافرين من النقيض إلى النقيض ... عندما يسكن الروحَ غرس متجذر في أعماق الذات يتغذى من دمنا ولحمنا ويهيمن على سَيْرِ حياتنا ويضعها في قالب حديدي وحصن شائك ... عندما تصبح الذاكرة المثقلة بالهم والوهم عائقا أمام السير والمضي قدما لفتح النوافذ الصدئة ليدخل نور الشمس المحتجز عنا من العهد الغارق في غياهب اللاحقيقة ... عندما تتجلط الأفكار في رؤوسنا وتصيبنا بسكتتة عقلية دائمة ... عندما يتربص بنا قناصون يصوّبون السهم نحو كل رأس تطل من ثقب الأمل الخابي تحت رماد أرواحانا وهشيم ذواتا المحكوم عليها بالموت في مهدها ... إذ ذاك كانت حياتنا مشروع موتنا ... إذ أننا مخلوقات تولد فقط لتموت ... و الموت أسمى أهداف الحياة في عرفنا .

في اليوم التالي كان أمام المدرسة ينتظرها، وعندما خرجت طلب منها أن تركب السيارة بجواره.

- نظرت إليه في ذهول وقالت: آجننت؟

- قال: ألم يسبق لك ركوب سيارة مع رجل؟

- قالت : بلى... ولكن،......

- قاطعها: ولكن ماذا؟ نحن هنا في قرية صغيرة والعيون متربصة ببعضها والاخبار الصادقة والكاذبة تنتشر انتشار النار في القش... آ،،، إذن المكان هو المشكلة، لو كنا بمكان آخر كندا مثلا... مثلا فقط... لكنت بين أحضاني الآن وربما أنت من فتحت سروالي...

لم يكمل كلامه إلا وقالت له ببرود:

- حقير منحط...

ومضت بوجه متجهم ودموع بالكاد حبستها في أحداقها. وأخذ هو يحدث نفسه:

– ما أغباني شرير أنا أحمق حطمت نفسي وحطمتها مسكينة مسكينة هي.

وفي اليوم التالي كان ينتظرها في نفس المكان قرب المدرسة، لكنها بمجرد أن رأته أشاحت بوجهها عنه، فتوجه ناحيتها قائلا:

– أحبك يا فردوس، أحبك...

– ولكنها هتفت: عم إدريس، عم إدريس أرجوك تصرف مع هذا الشخص إنه يضايقني يوميا.

جاء العم إدريس حارس المدرسة يجري رافعا جلبابه إذ بانت ساقيه النحيلتين وقال:

– ما هذا يا أستاذ لمَ تضايق الأستاذة فردوس؟، عيب عليك باين إنك ابن ناس، أرجوك لا تضطرني لمهاتفة شرطة المخفر.

– لم أرد بها سوء والله، أحب فقط محادثتها.

- العم إدريس: إسمع يا ولدي نحن هنا في قرية صغيرة و الناس لا ترحم والبنت الذي بها يكفيها، وإذا كنت جادا فتوكل على الله و أخطبها.

- رد باستهزاء: دون أن أتعرف عليها؟ الدنيا تغيرت يا عم. هل أنتم من أهل الكهف؟

- عم إدريس: أهل من؟ أي كهف؟

تركه مذهولا وانصرف حتى وصل إلى بيته الفخم يقطع المكان ذهابا وإيابا، ولاحظت أمه قلقه وانفعاله غير المعتاد... فسألته فقص لها كل ماحدث كأنه كان يفعل ذلك عمدا كي يثير اهتمامها وتسأله.

- قالت له أمه: ليس المشكلة أنها تزوجت بعقد أو دونه، المشكلة ما ذنبك أنت تتزوج امرأة مطلقة وأنت شاب في مقتبل حياتك وأول حظك، إذا كان حتى الرجل المطلق أو الأرمل يأخذ بنت العشرين العذراء، تأخذ أنت بقايا عبث غيرك؟

أمسك رأسه بين يديه وقال: ماهذا؟ أمي المثقفة المتحررة رئيسة جمعية الدفاع عن الأرامل والمطلقات تقول هذا؟ فعلا لم أعد أثق بأحد، كلكم مخادعون، منافقون... تقولون ما لا تفعلون مجتمع ملعون ملعوون....

في نفس المكان والزمان كان ينتظرها شاحب الوجه، وما إن رآها حتى شدها بعنف إليه واعتصرها بين ذراعيه قائلا:

- أحبك فردوس، أحبك،

وأطبق بشفتيه على شفتيها فأحست برعشة، لكنها انتفضت ودفعته بعنف ماسحة شفتيها بيدها وصرخت:

- اطلب الشرطة يا عم إدريس.

وما هي إلا دقائق حتى كان في قسم الشرطة يمضي تعهدا بعدم التعرض لها ثانية.

عاد إلى بيته مهموما حزينا وأخد يرشف قهوة، القهوة سوداء... لكنها صادقة... صادقة... لا تتقنّع

لا تتلوّن كالحرباء... الجريدة رمادية والأخبار صفراء، بعضها حمراء، وآخرُ سوداء تسبب السوداوية... الذاكرة مكتظة ... غليان تبخر فإمطار، تساقطت قطرات شديدة الملوحة، تراود الأحرف عن نفسها .. قررت الكلمات الانتحار حفاظا على عفتّها من أعين سادية شرسة تتحرش بمآسيها... هبت رياح عاتية طيّرت أوراق الجريدة وتركته وحيدا... أسرع برشف قهوته ليقرأ رواسب فنجان يعي أنه كاذب كالبشر يتسلى بخزعبلاته ويتسلى الفنجان بسخافاته، أغلق النافذة حتى لايطير الهواء عقله كما طير أوراق الجريدة.

أما فردوس فظلت ساكتة لا تتكلم لا تأكل لا تشرب.... فمن يراها يحسبها خشبة، دمية، مومياء فرعونية قديمة تحمل في تعاليم جسدها الميت ثقل حضارة بشرية ضخمة، بنجاحاتها وكوارثها، بأفراحها وأحزانها، بجنونها ورصانتها...

لِمَ فعلت هذا، كان بإمكانها صده بلطف... لا يهم، الرجال كلهم ذئاب شياطين، وإن وجد ملائكة فهم لا

يستمرون بل يموتون، يموتون بأبشع الطرق، ويظل البقاء للأشرس والأبشع.

أما هو و أمام هذا التطور غير المتوقع للأحداث، لم يجد حلا إلا أن يتخذ قرارا حاسما ويتقدم لخطبتها.

اعترف له والد الفتاة بكل شيء :

- لم تكمل الدراسة، بل تزوجت عرفيا من شاب تونسي خدعها وهجرها... ثم خطبها شاب لبناني فمات قبل العرس بأيام في حادث طائرة مروع، عانت بعده إضطرابا عقليا خطيرا لكن شُفيت والحمد لله...

تمت الخطبة، وكان الرجل رائعا متحضرا خلوقا طيّبا، ويحبها بجنون... وهي سعيدة، سعيدة جدا لدرجة الخوف، فلم تتعود على النهايات السعيدة لقصصها، وتحس بعذاب وعقدة ذنب: كيف تسعد ومن عاهدته على الحب والوفاء إلتهمته الديدان؟... لكن الوحدة صعبة والطريق بلا رفيق موحش، والحياة طريق، ويا له من طريق، فلتكف عن جلد نفسها ولتحي كالأسوياء.

كانوا يحضرون للعرس بعد عشر أيام، بمجرد انتهاء العام الدراسي ستودع تلاميذها وتتزوج، وتودع هذه القرية الكئيبة إلى الأبد، لن تعود لها إلا زائرة.

كانت تغادر المدرسة إذ اعترض طريقها قال : إركبي.

– قالت: أطلب الشرطة يا عم إدريس.

– قال: بل أطلب المأذون ياعم إدريس.

– قال العم إدريس بطيبة القروي: ربنا يهنيكوم ويسعدكم يا أولاد.

– قالا معا: تعيش يا رجل ياطيب.

وانطلقا بالسيارة يتجولان ولم يعودا إلا مع وقت العشاء محمّلين بأكياس الهدايا والمشتريات تحضيرا للعرس، وأطلقت عمة فردوس زغرودة إمتزجت بصوت المؤدن لصلاة العشاء، وتعشوا معًا ثم هم أكرم ليغادر،فقال له أب فردوس:

- لمَ لا تقضي الليل يا إبني هنا، كلم الوالدة بالهاتف ونم عندنا وغدا سافر، الطريق مظلم ولا أحد يضمن خلوه من أبناء الحرام.

- رد عليه: لا... يجب أن أرحل، عندي تصويرا باكرا، فيلم يجب أن أنهيه قبل الزفاف.

- قال: تفضل يا بني الله يحميك.

أما فردوس فتجهم وجهها وكادت تترجاه للبقاء. لكنها لم تفعل خجلا من أبيها، ولحقت به لتودعه في الحديقة فالتقت شفاههما برجفة كأنها القبلة الأخيرة... وعندما أمسك يدها كانت باردة جدا وفجأة إنفصلا على حفيف صوت شيء يتحرك بين الاشجار في الظلام الدامس.

ودعها وأدار محرك السيارة وانطلق، ووقفت تودعه بنظرات بائسة وهي تردد قصيدة أحست أنه كتبت خصيصا لها:

مثقلة أنا بهمومي
أمضي العمر أغازل جنوني
وأعزف آنَاتي لحنا يراقص العشاق
ويواسي كل حزين ومشتاق
ولِذاتي ما وجدت من ترياق
تغذيني الظنون وتراودني الشجون
فلا تحمّلني ذنوبًا على ذنوبي
كاهلي أثقلته الخطايا
ومنها براء أنا وأنايا
براءة الذئب من دم ابن يعقوب
مذنبة وما أدري ما اقترفت يداي
ما نحن إلا ريش في مهب الأقدار
وأرواح تائهة عبر الدروب
ما دام لنا غصن ولا اخضرار

فلا تحاول عزف سمفونيتك على أوتاري
صدئة هي فحداري
لا تتخد مواقع للسمع خلف جداري
منيع هو حصن مشاعري و أسراري
يا ساريا بين أفكاري
يا حاديّ صمتي وإجهاري
لا القرب يشفيني ولا البعد يرضيني
فلتكن روحك وطنا يأويني

كانت فردوس ترتدي فستان العرس وبجانبها أكرم بوجه مشرق والزغاريد والوروووود، لكن الغريب أن أكرم ارتدى بدلة بيضاء على عكس العادة، ربما تفاؤلاب اللون لأبيض، أما فردوس ففستانها أسود وغطاء الوجه أسود... ربما لأن المنظر كان سيبدوا منفرا لو ارتدايا الأبيض معا.

اختلط صوت الزغاريد برنين هاتفها... فتحت

عينيها، فدق قلبها، من يتصل هذا الوقت؟، كانت أم أكرم قلقة تسأل لأنه لم يعد للبيت، فبهتت فردوس ولم تجد جوابا...

وبعد مرور ثماني وأربعين ساعة بدأت حملة البحث عنه، ولم تطل رحلة البحث حتى وجدت السيارة مقلوبة في منحدر والرجل فاقد للحياة.

واتضح فيما بعد أن الحادث وقع بسبب تمزق الفرامل، وعد قضاءً وقدرًا، إلا أن فردوس وحدها كانت تعرف اليد الحقيقية وراء ذلك، وأيقنت ألا مفر لها من قضائها المحتوم...

متعبة هي، متعبة من الحب، من المغامرات، من المشاجرات، من الأحزان، من كل شيء، تبحث عن السلام عن الاستقرار، وليكن مغاوري محطتها الأخيرة... ليس عن اختيار ورضى وإنما إذعانا للقدر.

ألا يقال المكتوب على الجبين لازم تشوفه العين؟

وهي متأكدة أنه كتب على جبينها وبالخط العريض قاتم السواد/ مغاااااااوري/، خصوصا بعد أن شاع بين الناس أنها فتاة منحوسة ونذير شؤم وأن كل من ينوي الزواج منها سيموت.

قالت في نفسها أنها سترتبط بمغاوري لأنه عكس كل تطلعاتها عسى القدر يهدأ ويتوقف عن الانتقام منها لذنب لا تعلم عنه شيئا.

قد تصدق عليها نظرية تناسخ وتفاسخ الأرواح، ومن يدري؟/

التناسخ أو رجوع الروح إلى الحياة بجسد آخر، فكرة فلسفية ودينية وعلمية مرتبطة بالجسد والروح والذات. وهو عملية روحانية لتحسين الذات عبر الخبرات والتجارب لكل تناسخ.

الاعتقاد بالتناسخ وتكرير الخبرة الدنيوية جاء عن طريق معتقد رجوع الروح باجساد أرضوية من الأديان القديمة مثل الفرعونية واليونانية والهندوسية والبوذية، وبعض الديانات الإبراهيمية. حيث يعتقد أن الروح الفاضلة تمنح حياة أفضل من السابقة، والروح المسيئة المذنبة تمنح حياة أسوء وقد تمسخ في جسد حيوان أو نبات أوحجر

قررت ألا تحزن لا تكتئب، قائلة في نفسها:

– ما فائدة ذلك؟

فقط ستتمرد على رغبتاها ومرادها، عن أهوائها وميولها وتنسى كل تطلعاتها ألا يقال: القناعة كنز لا يفنى؟ لن تكتفي بالقناعة، بل ستخنع وتخضع...، ما تكون هي؟ مجرد حشرة حقيرة في هذا الكون العظيم، مهما علا شأنها ستتبرز برازا نتنا ومقززا، ستموت وتتعفن وتأكلها الديدان، مخلوقات قذرة تحاول التجمل والترفع... فلتدع الأقدار تفعل ما تشاء.

وتزوجت مغاوري الذي لم يكمل مراحله الأولى من الدراسة... الذي يمارس الجنس ولا يغتسل، يأكل الدجاج والبط ثم ينقض عليها يفترسها ويحلي بعدها بتفاحة...

ورغم محاولاتها لأن تكون وديعة ومستكينة كانت طبيعتها الثائرة المتمردة تطفو على السطح عندما تفقد القدرة على السيطرة وكبح جماح غضبها، فتنشب بينهما مشاجرات كبيرة تنتهي بتذكيره لها بأنه تفضلّ عليها بأن تزوجها وهي ليست بكرا، وبضربها فتذهب لأمها شاكية فتذكرها بضرورة طاعة زوجها مهما كان، و بأنها ستحاسب وستدخل النار إذا أغضبته، وبأنه من واجبها

أن تسمح له باعتلائها متى شاء وإلا لعنتها الملائكة وغُضبت عليها ... وكانت فردوس تتساءل:

– وأين حق المرأة ومشاعرها ورغبتها وإرادتها؟

فترد الأم المسكينة المستكينة التي لم تعرف من الزواج إلا كي الملابس ،وتلميع الأحدية وإنجاب الأطفال وإطعام البط:

– عيب هذا الكلام... أي رغبة؟ ليس للمرأة الفاضلة الأصيلة رغبة غير إسعاد زوجها وإرضائه... هذه هي الأصول، وأي كلام غير هذا عهر وعار...

فكان عليها أن تحيا جسدا بلا روح، مومياء عربية عريقة، بكل إخلاص وولاء لثقافة ومعتقدات ومقدسات مجتمعها التي أهمها الرجل... ووجب عليها التكيف مع مجتمعها، مجتمع كي يكون فيه الإنسان صالحا يجب أن يضغط زر (ستوب) لعقله ، وكي تكون المرأة فاضلة عليها أن تنسى أنها إنسان كامل كيف؟ وشهادتها نصف وإرثها نصف، وهي ناقصة عقل ودين مهما اجتهدت؟

كيف وهي خلقت لتسعد الرجل وتلبي شهوته ولو كانت على ظهر جمل؟...

حتى النافذة الوحيدة التي كانت تتواصل عن طريقها مع العالم، أغلقت في وجهها بكل تعنت وديكتاتورية، مغاوري رجل شرقي محححترم، وماعندوش نساء تدخل فايس بوك...

لم تبقى إلا الرسائل التقليدية تصل بينها وين صديقتها التونسية «سهير» التي تزوجت من عازف بلجيكي ملحد ضاربة كل الأعراف والمحرّمات عرض الحائط، وها هي تحي حياة بشرية مهما شابها بعض الخلل لن يكون بحجم ما تتعرض له هي من إهانة وتحقير وضرب على يد مغاوري المؤمن الموحّد...

إلى متى ستتمكن من قهر نفسها والإذعان لمغاوري وطاعته، والطامة الكبرى أنها إذا لم تطعه فهي عاصية ومذنبة وملعونة، وطاعة الزوج ضرورية لدخول الجنة/

***** رواه الإمام أحمد عن عبد الرحمن بن عوف**

قال: قال رسول الله ﷺ: إذا صلت المرأة خمسها وصامت شهرها وحفظت فرجها وأطاعت زوجها قيل لها ادخلي الجنة من أي أبواب الجنة شئت***

ومن لم تدخل الجنة دخلت النار أكيد فلا منطقة محايدة بينهما... إذن فقد كتب عليها دخول جهنم بسبب الرجل، فلو تزوجت غير مسلم مهما كن صالحا وفاضلا دخلت جهنم، ولو تزوجت مسلما ولم تطعه ولم تكن له آمة جاهزة لكل مطالبه وشبقه وجوعه النهم حتى لو استفرغت ما بمعدتها بعد كل استفراغ لما بفرجه في أحشائها، لدخلت جهنم أيضا، ومن الغباء أن يختار الإنسان الحالة الاكثر ضررا، فمع مغاوري هي تعيش جحيم الدنيا ثم جحيم لآخر ، ولو تزوجت أحد الكنديين الذين أحبوها ربما لعاشت حياة عادية وجحيما في الآخرة... لفيكن جحيم الآخرة، فلتذهب الأعراف والمحرمات للجحيم فلتذهب.....

حسبنا أيها الألم ما ذقنا من جور الزمان

تناثرت أحلامنا تناثر الريش باهت الألوان
تهوي الأيام بأمانينا كما تهوي الرياح بالكثبان
لاهم للقدر إلا إفناء صبانا قبل الأوان
واستبدال ألوان بألاوانٍ
ألا أيها القدر أنصفنا هنيهة
قبل أن نغدوفي طي النسيان
وتلفنا دياجي ملفوفة بفيافي
مالي أرى الآلام تتراقص
ذات اليمين و ذات الشمال
مالي أرى الفناء يهرول
في الصحو و الخيال
أين أمضي بروح مثقل الجيوب
بأفكار ونواميس عدت بين الورى عيوبي
أين أمضي وإني فطرت على تأمل وتلمس

ولا أحب فرض القيود ...ولانقض العهود

سأزين بالندى خدودي ...

وأرسم بسمة على وجه الوجود

علني أخفف بعض الكرب

عمن تعشموا خيرا في وجودي

وأزرع شتيلات أمل تناشد الخلود

وترشي الأيام عساها بفرح تجود

استيقظ مغاوري متثائبا بصوت مرتفع، بدأ يتحسسها لينقض عليها قبل الإفطار كعادته، اكتشف ان مكانها فارغ فانتظر قليلا ربما هي بالحمام...

عندما أطالت الغياب لحق بها لاستعجالها، فحتى الحمام كانت لا تدخله بحرية فكثيرا ما يستعجلها لاحتياجه لها بأمر ما؛ ودائما كان ينتقد نظافتها الزائدة عن الحدود– قائلا لها بتوبيخ:

– ما هذا... إغتسال، إغتسال، إستحمام، تكرهين

رائحة البيض، رائحة السمك، البصل .... ، إن طبخت أكلا جديدا قال : هذا تبذير لمَ طبخت ولنا أكل باق في الثلاجة؟، وإن لم تطبخ قال: هل كتب عليّ أن أتغذى بما تعشيت أمسِ ...؟، إن نظفت البيت ورتبته قال: هل سيزورنا الرئيس اليوم؟ إن جلست تتفرج على التلفاز قال: أظن أنك متزوجة هذا الجهاز الملعون، إن حملت بين يديها كتابا قال: تزوجت امرأة أم تلميذة فلتعودي للكتاب أحسن، إن استمعت للموسيقى أطفأ الراديو في غضب قائلا: إن كنت مستعدة لصب الرصاص الساخن في أذنيك يوم القيامة، فأنا لا أريد أن تعشعش الشياطين في بيتي، ومرة كسر الراديو أمامها وكذا فعل بهاتفها الخلوي متحجّجا بكثرة الرغي والثرثرة... ولما لم تحبل كان يعايرها بأنها عقيمة.

– وعندما قالت له: وما أدراك من العقيم هل زرنا طبيبا وكشفنا عن السبب؟

– قال لها بغضب جنوني تقصدين أن السبب مني، لست رجلا؟/

***** يخلط العامة بين العقم والضعف الجنسي، فالرجل العقيم ضعيف جنسيا بالضرورة وليس رجلا. رغم أن العلم يفصل بين الحالتين، لذلك لا يعترف الرجل الشرقي أنه عقيم حتى وإن تأكد ذلك،سيظل الأمر سرا وتلصق التهمة بالزوجة ومن واجبها ستر زوجها، وإلا عدت إمرأة عاقة وغير صالحة)*****

- لست رجلا؟

حينها ضربها ضربا همجيا ثم ألقاها على البلاط وراح يغتصبها صارخا:

- أنظري ألست رجلا وسيد الرجال؟ لست عاقرا؟ هاه ...؟ ثم من تزوج... هههه... من الذي زنى سابقا ولم يلد؟ أنا أم أنت؟

تناسى مغامراته الشاذة مع الماعز والخرفان و.... ثم مع سُعدة العجوز المجنونة التي أنهكها من صغرها الصغار والكبار، المتربّصون والمحترفون، المبتدؤون والمحنّكون، العزّاب والمحصّنون بأفعالهم الشنيعة، والعجيب أنها لم

تصب بأي مرض تناسلي .

ظل يبحث عن فردوس لكن خاب ظنه، فلا أثر لها في أي ركن من المنزل، فأسرع لبيت والدها يدق الجرس بيد ويضرب الباب بيد أخرى، فتحت أمها باكية صرخت به;

- أغرب عن وجهي... نفّرت البنت نفّرتها... هربت منك... لم يأبه لها وبدأ يبحث داخل البيت كالمجنون ويصرخ:

- فردوس، فردوس.... وأمها تنتحب ثم قالت له:

- لا تتعب نفسك إتصلت بي من القاهرة وأخبرتني أنها ستتدبر أمرها وتسافر لكندا أو أي بلد آخر وأقسمت أنها لن تعود، لن تعود... حتى عند موتها ستوصي بحرق جثتها بدل إرسالها لتدفن هنا...

كانت في نفس الطائرة على نفس الكرسي... هل هي الصدفة؟ أم القدر احتجز لها هذا المقعد منذ الأزل في الوح

المحفوظ كما حدد خيط سيرها وخّطط لمطبّاتها و....

خفض الجريدة وقال: من؟ المومياااء؟!

نظرت إليه باستغراب ودهشة، لكن هذا الوجه الوسيم والهيئة الوقورة توحي لها بشيء ما... ثم ما فتئت أن عرفته زميلها في الإبتدائي أسامة الذي سافر إلى القاهرة وأصبح صحفيا وصاحب دار نشر، طالما مثلا معا مسرحية المومياء أثناء المدرسة، إذ لعبت هي مومياء كليوباترا، وهو كاهن المعبد.

قالت: المومياء تمردت، لم تعد بحاجة لكهان أو عشّاق أو حراس... المومياء ستبعث ... ستبعث... ستعيش... ستحيا... ألم تحنّط على أمل أن تبعث فيها الحياة من جديد يوما ما .. هاقد آن آوان بعثها... ستبعث ... ستبعث...

أنفجرت باكية ثم مسحت الدموع ورفعت رأسها إلى أعلى وأعلى كما كانت الطائرة ترتفع ضاربة بقوةا لجاذبية عرض الماضي الغابر في أدغال التاريخ.

بكبرياء وثقة لم تدر مصدر تلك القوة والطاقة... أكيد جدها الفرعون الأعظم باركها أخيرًا ومنحها قدرة خارقة لإخضاع «التشي» لإرادتها ... كما يخضع العلم قوانين الطبيعة لإرادته...

• كلمة الصينية تستخدم لوصف «الطاقة الطبيعية للكون». وهي أيضا طاقة روحانية أو خارقة للطبيعة، وجزء من نمط اعتقاد فوق طبيعي ميتافيزيقي غير تجريبي. ويعتقد أن «تشي» تتغلغل في كل الأشياء بما فيها الجسد الآدمي.

نهاية الجزء الأول